

الفردوس المطهر

تأليف

ممن رشاد السيد

معهد التربية العالي للعلمين

الطبعة الأولى

١٠ نوفمبر سنة ١٩٤٧

للمؤلف

١ - فاجعة فوق كنز

٢ - الأميرة الهندية

٣ - مبيعة ملائكة وشيطان

٤ - برىء فى الأغلال

بعض ما قيل في قصة

(برىء في الاغفل)

مالها وما عليها

نخبه من تعليقات النقاد وأقوال القراء

« قصة حافلة بالمفاجئات ، مثيرة للمواقف الخالدة نحا فيها مؤلفها نحواً جديداً في القصص الشرقى العربى وهى سهلة الأسلوب ، جميلة العرض »

(جريدة الامراء الغراء ٢٥ يونيه ١٩٤٧)

« احسنى زرائع القصص المصرية الطويلة عرض فيها مؤلفها جانباً من الحياة المصرية فى حوادث مترابطة وبأسلوب شائق وقد حلل شخصيات القصة تحليلاً دقيقاً أبرز فيه مكنونات النفس من خير وشر فامتلات القصة بآيات من العبر والدروس والمبادئ السامية والمثل العليا »

(جريدة المصرى الغراء ١٤ يوليو ١٩٤٧)

« قصة مصرية طويلة مليئة بالمواقف القوية المثيرة وهى تمتاز بجودة أسلوبها والتصوير الجميل »

(جريدة صوت الأمة الغراء ٢٦ مارس ١٩٤٧)

« . . . والقصة تتميز بحال التصوير ورقة الأسلوب ودقة العرض ، وقوة التشويق حتى أنها لتأخذ بلب القارىء فلا يكاد يستطيع أن يضعها من يده قبل أن يأتى على آخرها ، وهى فى مجموعها تصور النضال المرير بين قوات الخير والشر كما يصوره الذهن القصصى الموهوب وخيال الروائى المفطور »

(مجلة الصباح الغراء ٢٩ مايو ١٩٤٧)

« وهي جيدة من حيث موضوعها الذي استهدف كاتبه أن يكتب للفضيلة الخُفسر ، ويعلى فيه قدر الحق وإن خال البعض أن رأيه أنزلت من ساريته ، وهي قصة تميزت بأسلوب جميل لولا ذلك التسرع الذي تسبب في طائفة من الأخطاء كان في الطاقة اجتنابها وتلافيها »
(جريدة منبر الشرق الغراء ٢٥ أبريل ١٩٤١)

« وهي تمتاز بدقة الوصف وجمال التصوير وعمق التفكير وقوة الحكمة والتشويق ، هذا فضلا عن أنها رفعت الحب الى مستوى العبادة والتقديس واشتملت على مبادئ ومثل عليا تسمو بالقارىء الى عالم السموات ، وما آخذه عليها هو كثرة ما فيها من أحزان وفجائع وآلام »
ن . ك

خريجة كلية الاداب

« وهي حافلة بالأغراض والأهداف السامية التي يجب على كل قصصى أن يستهدفها وخاصة في دور الانتقال الذي نجتازه الآن ، ان النشء الحديث في أشد الحاجة الى القصص المشوقة الرفيعة التي تعالج مواضيع كموضوع هذه القصة »

دكتور حسين رحيم
مدرس بكلية الطب

« والقارىء لهذه القصة يشعر أنه يعيش مع أبطالها وشخصياتها في جانب من المجتمع المصرى نابض بالحياة ولا شك أن ذلك راجع الى صدق نظرة المؤلف النفسية والاجتماعية ومقدرته على التحليل والوصف والتعبير ، »

محمد سليمان شعلان

مدرس بمدرسة الخديوى اسماعيل الثانوية

كلمة الناشر

هذه هي القصة الثانية التي أقوم بنشرها للأستاذ حسن رشاد، والقصة الأولى هي تحفته الرائعة « برىء في الأغلال » التي صدرت منذ أشهر قلائل والتي عدتها النقاد فتحا جديدا في القصة المصرية الطويلة ، ولقد كانت القصة بحق نصرا كبيرا للقصر المصري المطولة وليس أدل على ذلك مما ظفرت به من نجاح باهر ورواج كبير .

وأود هنا أن أذكر حقيقة يجهلها القراء وهي انني حين أقدمت على نشر قصة « برىء في الأغلال » لم أكن في الواقع أتوقع لها كثيرا من الرواج لا شيء الا لأنني كنت أعرف أن حظ القصة المصرية المطولة من النجاح والرواج ضئيل جدا، ولكن ما كادت القصة تظهر وتداولها الأيدي حتى وقع خلاف ما توقعت ، فقد استقبلها القراء باعجاب بلغ أقصاه ، ورحب بها النقاد أحسن ترحيب ، كما قررتها وزارة المعارف بمكتبات جميع مدارسها الثانوية مما أدى الى نفاد جميع أعداد الطبعة الأولى ، ويسرني أن أعلن أن الطبعة الثانية ستظهر قريبا وستكون كأختها في جودة الطبع وأناقة المظهر .

لهذا عن قصة « برىء في الأغلال » أما فيما يختص بهذه القصة فيمكنني أن أقول ان جميع من اطلع على موضوعها من الأدباء قد

أجمعوا على أنها من أروع القصص وأقواها ، وقد بشروا حكمهم
هذا على ما حفلت به من المواقف القوية والمفاجئات المشيرة
والعضات البالغة والحوادث المحكمة المشوقة التي تستهوى النفوس
وتغلب الأبواب .

وأخيرا أهنيء مؤلفنا الشاب بهذا النجاح ، وأرجو أن يجد
دائما من التقدير ما يستحث خطوته ويلهم عزيمته في مضمار
هذا الفن الرفيع .

عبد الفتاح عناني

١٠ نوفمبر سنة ١٩٤٧

اخطاء يرجى تصحيحها قبل قراءة القصة

صفحة	سطر	الخطأ	الصواب
٨	٨	الشفيق	شفيق
٨	١٥	تقرأ	نقرأ
١١	١٥	خوات	أخوات
٢٠	٤	التسعة	الأولى
٢٢	٩	وساين	وسترين
٢٢	٥	الزوقاوين	الزرقاوين
٢٥	٩	أحد	أحدى
٣٢	٤	سيجاياك	سجايك
٣٢	١١	فكره	فكرى
٩٠	١١	أخير	أخيرا
٩٢	٣	أغانى	أغان
١٥٣	٢	بما	بما
١٧٤	١	ملىء	ملينا

شكر

يشكر المؤلف حضرات الأدباء والقراء
الذين رحبوا بجهوده ، وهو اذ يسجل لهم هذا
الشكر لا يسعه الا أن يعاهدكم على مضاعفة
هذه الجهود ليظل له هذا التقدير الذي يفخر
به ويعتز .

المؤلف

الفصل الأول

في أصيل يوم من أيام الصيف من عام ١٩٤٥ أقبل على فندق (الجبيلي) بمصيف (عاليه) ببلنات شاب طويل القامة ، أسمر اللون ، نحيل الجسم ، شاحب الوجه ، يسير بخطوات قلقة وقد بدا أشعث أغبر كأنه آت من سفر بعيد ، ولم يلبث أن ألقي على من صادفه من نزلاء الفندق نظرة عابرة شاردة ثم انطلق في أثر أحد موظفي الفندق الى إحدى الغرف ، وظل هناك ساعات ثم عاد الى القاعة الكبرى وقد تأبط كتاباً وأرسل بصره في شروذ غير عابئ بما يحيط به من مظاهر المرح واللهو والتسلية ، ولحظ عن كثب مقعداً منعزلاً في إحدى الشرفات فأسرع إليه واتخذ مجلسه في صمت وهندوء ، وكانت القاعة الكبرى والأبهاء المؤدية إليها تعج بالمصطافين من طلاب اللهو والاستجمام وتضج بأصوات الضحك والرقص والموسيقى ومع ذلك فقد ظل الشاب جامداً شارداً لا يكاد يأتى حركة ولا يكاد يحس بما حوله شيئاً ، كان يبدو عليه أن أمراً خطيراً يشغل باله ويملك عليه حواسه ويصرفه عن التفكير فيما عداه ، وأنه ليحاول أن يهرب من خواطره فيتشاغل عنها بالقراءة في كتابه حيناً وتأمل مفاتيح الطبيعة الممتدة أمامه حيناً آخر

ولكن خواطره كانت تأتي الا أن تلح عليه وتتشبث بذهنه
وتشتمل عليه اشتمالاً ، وكان مصيف (عاليه) يمتد أمام ناظره
بكل مشاهد الفاتنة ومجاليه الحسان ، كانت قمم الجبال بأكاليلها
الغر وأشجار الغابات بغصونها الوارفة الظلال ، والبساتين
الحافلة بمشوع الأزهار والثمار ، هذا كله كان مجتمعاً أمام عينه
في صورة رائعة تبعث في النفس السرور وتوحى اليها بالصفاء ،
ولكن ثمة أشياء في الأعماق من نفسه كانت تثقل عليه وتلقى
أمام عينه حجاباً كثيفاً ثقيلاً يبعث في النفس الحزن والانقباض
ويحجب عنها الجمال والضياء .

وطلب عشاءه بعد وقت ثم نهض وغادر الشرفة ومشى
الى غرفته بخطى متباطئة ثقيلة كمن يمشى في جنازة .

ومرت أيام وهو منك في خواطره التي تساوره وقلقه
الذي يطويه ، ولكنه بعد أسبوع استطاع أن يروض نفسه
على حياة المصيف ويستسيغها واستطاع أن يجد في هذه البيئة
الحلوة الساحرة الراحة التي يجدها الملاح بعد عاصفة عاتية هددته
بالدمار ، كان في الصباح يخرج للتريض في الحدائق والتصعيد في
الربى المجاورة حتى اذا حل المساء عاد الى الفندق وعكف على
القراءة والكتابة وتأمل سحر الطبيعة من ركنه المنعزل في

صمته المطلق وهـدوئه المعهود ولكنه ظل في جميع الأوقات شديد الابتعاد عن الناس زاهداً في الحديث معهم زهده في رؤيتهم .

وفي مساء أحد الأيام كان جالسا في مقعده كما جلس من قبل عشرات المرات ، في يمينه كتاب وفي يسراه انفاقة تبغ وأمامه صفيحة طعام لم تمسه يداه من فرط استغراقه في التفكير ، وفجأة دخل القاعة الكبرى رجل أنيق المظهر ضخيم الجسم في الخمسين من عمره فاذا جو من الأهمية يحتاجها وإذا ببعض النزلاء يكفون عن الرقص واللغط ويخفون الى استقباله مع من خف اليه من الموظفين ، ووقف الرجل قليلا يحيي الجميع بايماءات رشيقة ويوزع ابتساماته هنا وهناك في حركات تمثيلية متكلفة ثم ما لبث أن أحنى هامته وتبع أحد موظفي الفندق إلى غرفته .

وظل النزلاء يخوضون في الحديث عن الأستاذ «شفيق صلاح الدين» الممثل المصري المعروف ودواعي حضوره الى المصيف وما قد يكون لذلك من علاقة بأعماله وأعبائه الفنية الى انفض سامرهم في ساعة متأخرة من الليل .

وكان الأستاذ شفيق إحدى الشخصيات المعروفة في الأوساط الفنية في مصر ، وكان يتمتع باحترام ومحبة جمهور كبير من العامة في مصر والأقطار الشرقية ولكن عيبه الوحيد يتمثل في عجزه عن ارضاء الخاصة من طبقة المثقفين وذوى الوقار والاحتشام لجنوحه الى حشو قصصه السينمائية بألوان من الفن العارى الذى يثير فى النفس نوازع الشهوات وبواعث الجسد ، ولجراته فى السطو على انتاج الغير ونسبته الى نفسه واسرافه فى محاكاة الغربيين محاكاة عمياء ممقوتة . ولم يكن الأستاذ شفيق حين قصد هذا الفندق يبغى فى الحقيقة القيام بأى عمل من أعماله الفنية كما ظن النزلاء لأول وهلة ، فقد كان هدفه من حضوره الحصول على أوفى نصيب من الراحة وقضاء بضعة أيام فى هذه البيئة الحلوة ريثما تلحق به المطربة العراقية الجديدة « ليلي » التى اكتشفها أثناء طوافه فى البلاد الشرقية والتى تعاقد معها على العمل فى فيلمه الجديد « النجم الهاوى » .

ولقد نعم الأستاذ شفيق فى هذه الفترة بمفاتيح الحياة الخلوية التى ينشدها طلاب الرياضة والاستجمام ، واندمج فى هذه البيئة اندماجا خالصا . وتوثقت عرى الألفة والصداقة بينه وبين أكثر المصطفين ولا سيما المليونير المصرى « عارف باشا » ،

وزوجه وكريمته الشابة الحسنة « فائزة » والوجيه السورى جميل
بك وقرينته وحفيدهما الشاب الرياضى « عادل » وكان من المناظر
المألوفة أن يرى وقد تصدر مائدة الاسرتين وأخذ يتحفهم بأفانين
قصصه وطريف نوادره ، فلما كان الاسبوع الثانى من أقامته
لقى الشاب الذى جاء ذكره فى مطلع القصة وكان لقاؤهما لقاء
فريدا لما خطه فى حياة كل منهما من عميق الآثار ، ففى مساء يوم
كان الاستاذ شفيق يجلس كعادته الى مائدة « عارف باشا »
فى الشرفة وأمامه عند الأفق صفاء البحر وزرقة السماء ، وكان
على مقربة منهم مائدة يجلس اليها أربعة من المصطافين يلعبون
الورق وفى الطرف الآخر كان يجلس الشاب المنفرد فى ركنه
المنعزل فى صمته العميق وشروده المتصل ، وكان الاستاذ شفيق
فى ذلك الوقت يحكى لرفاقه بصوت مرتفع ولهجة تمثيلية قصته
الجديدة « النجم الهاوى » التى ألفها خصيصاً لمطربته الجديدة
« ليلي » ، وكان الجميع يصغون اليه بأذان مرهفة ونفوس مكبرة
ونظرات تومض بالاستحسان والاعجاب ، وكان اثناء سرده
للقصة يرقب فى زهو ما يرسم على وجوه سامعيه من مختلف
المعاني ، فهذا ينطق التأثير الشديد فى محياه ، وهذه تترقق الدموع
فى مآقيها ، وتلك تحرق فى وجهه وتتابع عباراته فى لهفة واعجاب .

وكانت القصة مأساة تدور أحداثها حول حياة مطربة ارتفعت بفضل حسنها البارع وصوتها الساحر الى ذروة المجد ولكنها مع ذلك عاشت أتعبت حياة وماتت أشنع ميتة وأشقاها ، وحين سكنت الاستاذ شفيق بعد أن قال ما قال بصوت حزين النبرة عجيب الألقاء ، أقبل عليه الجميع يهنئونه ويشدون على يده في حرارة و إعجاب فابتسم وقال وقد تبدلت لهجته وشاع فيها الزهو والاعتداد .

— عجباً ، هل أثرت فيكم قصتي الى هذا الحد ؟ — فأجابته فائزاً وفي عينيها دمعة تترقرق .

— حقاً ، أن خاتمتها مؤثرة للغاية — وكان النزلاء الاربعة الذين يجلسون الى المائدة المجاورة يصغون اليه اثناء سرده للقصة فلما فرغ منها نهضوا بدورهم من أما كنهم وتتابعوا الواحد تلو الآخر وأخذوا يهنئونه في كلمات لبقية وعبارات رقيقة .

ولحظ الاستاذ شفيق أن وراء المائدة الثالثة في الشرفة شاباً يجلس معرضاً عنه وييده كتاب وأمامه صحاف من طعام لم تمسه يده وكأنما وجد الاستاذ شفيق في افعال الشاب لشأنه واعراضه عنه تحدياً صامتاً لا يحمل الرضا به أو السكوت عليه فحول إليه نظره وأرسل اليه ابتسامة من يتساءل .

— وأنت ما قولك ؟ —

فرد اليه الشاب ابتسامته بأخرى مقتضبة وقال

— تعنى القصة ؟ لا بأس بها على أى حال -

وكان على وشك أن يدس أنفه فى كتابه حين ارتفع صوت

الاستاذ شفيق قائلا - اه ، هاكم شخصا لا يرى رأيكم فى القصة

على ما أظن - وسبكت لحظة ثم تطلع اليه واستطرد متسائلا

— هل سمعتها من البدايه الى النهاية ؟ -

فاجابه فى غير مبالاة وهو يتأمل دخان سيجارته اذ يتبدد

فى الفضاء

— أجل ، ووعيت كل كلمة فيها -

فقال الآخر - حسنا ، وما رأيك صراحة فيها ؟ -

وقبل أن يجيبه التفتت فائزته ناحية الشاب وقالت لمن معها وهى

تأملله .

— يخيل الى أن له روح فنان -

فحوت أمها نظرها اليه وقالت متسائلة - أحقا ؟ -

فأجابها - أجل ، ولكن الى حد ما -

قالت - مصور -

— كلا -

— مثل -

— كلا -

— مشال -

— كلا -

— روائى -

— أجل -

وعندئذ قال عارف باشا - اذن بوسعك أن تزن (النجم الهاوى)
كما يفعل الخبير -

فأجابه - وما نفع ذلك للاستاذ الشفيق؟ -

فأسرع شفيق يقول - بالعكس، اننى اعلق أهمية كبيرة على رأى
الناقد مادام مخلصا فى مذهبه، والآن هل لك أن تشرفنا
بقضاء السهرة معنا -

فترك الشاب مكانه وتقدم ناحيتهم فى بطم وبعد أن أحنى رأسه
قليلًا قدم نفسه قائلا - شوقى أمين -

وما كاد يتفوه باسمه حتى شخست الأبصار اليه وهتفت إحدى
الجالسات قائلة - اه، اذن فأنت الكاتب القصصى الذى تقرأ
له فى الصحف كثيرا -

وقالت فائزة وهى تصافحه وتفسح له مكانا بجوارها - ما أشد
تطابق منظرِكَ على الصورة التى ترسمها قصصك فى ذهن القارئ

فقال مبتسماً - هل تظنين ذلك ؟ -

قالت - بكل تأكيد ، ولا ريب أنك تحس كل كلمة تكتمها
في مآسيك -

فقال - هذا حق يا آنسة -

قالت إحدى الجالسات - أشعر بكل هذا الألم حقاً ؟ -

فسكت لحظة شرد فيها بذهنه ونظر بعيداً ثم قال بصوت كئيب
- أجل ، أننى أصور ما أحسه فى دنيائى - وأدرك الأستاذ شفيق
أن بين يديه فنانا قديراً وروائياً موهوباً فتجنب فى حذر
الخوض معه فى المسائل الفنية وود من صميم فؤاده لو ينصرف
الحديث الى موضوعات لا تمت للفن بصلة ولكن إحدى
الجالسات ما لبثت أن خبت رجاءه حين عرجت الى الحديث
عن القصة بقولها

- والآن ، هل لك أن تخبرنا برأيك فى النجم الهاوى -

فتحرك الأستاذ شفيق فى مقعده وقال - حقاً ، كم أنا مشوق
لسماع رأيك فيها -

فقال الشاب - أتريد رأيي صراحة ؟ -

قال - طبعاً ... فليس أبغض الى نفسى من المجاملة فى مثل هذه
الأمور -

فقال شوقي - حسنا ، في رأي أن قصتك من القصص التي لا تعيش في القلوب طويلا -

فسأله وهو يتفرس في وجهه - ولماذا ؟ -

فأجابه - لأنها بعيدة كل البعد عن الواقع حتى ليتعذر على الشرقي أن يجد نفسه فيها ، هذا من جهة ومن جهة أخرى فالقصة في رأي نسخة مكررة لقصة « غادة الكاميليا » المعروفة وأنت وأن كنت قد نجحت في طمس بعض معالمها الا أنك لم تنجح في اقتباس قصة ذات أحداث تحاكي طبائع الشرقيين وتتسق مع دوافعهم وخوافهم وعاداتهم المتأصلة ، واعتقد انك توفق غاية التوفيق اذا أعدت كتابة القصة مستعينا في خلق حوادثها بدراسة حياة إحدى الفئات الشرقية فأن حياتهن مليئة بوقائع وتجارب لا تنضب ، وخير ما تفعله في هذا الشأن أن تبدأ بدراسة حياة بطلتك الجديدة « ليلي » التي سمعتك تتحدث عنها الليلة -

فقال الآخر - عظيم ، ولكن هل تصلح حياة فناناتنا أساسا لقصص مثيرة ؟ .

فأجابه - ولم لا ، لاشك أن وراء حياة البعض منهن تكمن قصص أن لم تكن مثيرة فهي تصلح لأن تكون أساسا لقصص

ناجحة .

فقال شفيق - أنا معك ، ولكن الشيء الذى لا أتردد فى الجزم به هو أن حياة « ليلي » العراقية لن تمنحنا فى يسر المادة التى ننشدها .

فقال شوقي - أنك أدرى بذلك طبعاً ولكن لا تنس أن الكثيرات منهن يؤثرن الكتمان بدافع الرغبة فى ستر ماضيهن عن الناس ، فهل قنشت فى تاريخ حياتها وتعمقت دراسته جيداً ؟ - فأجابه - الواقع أنني بعد أن قنشت فى تاريخ حياتها القريب والبعيد لم أجد فيه غناء ، لأنه تاريخ مئات الفتيات اللاتي ينشأن فى الطبقة المتوسطة التى تعيش على دخل محدود حتى إذا ما أصيب العائل بكارثة حل بجميع ركاب سفينه البوار ولحق بهم الفقر والتشرد والبؤس والعوز ، ولقد أمضت (ليلي) طفولتها وصباها وفجر شبابها فى إحدى الأسرات التى تنتسب لهذه الطبقة ، ومات أبوها وتركها فتاة فى الثامنة عشرة من عمرها مع خوات ثلاث ، ومع أم شقية جاهلة لا تحسن شيئاً تستعين به على كسب قوتها وقوت عيالها ، وكانت (ليلي) كبرى أخواتها فحملت العبء قبلهن وأحست بمحنة الضيق والحرمان أحساساً عنيفاً قاسياً ، وكانت تمتاز عن أخواتها وعن سائر

بنات البلدة التي كانت تعيش فيها بوجهها السمع وحسنها الرائع وصوتها العذب الصافي فلما نزل بالأسرة الضيق ولاح شبح الأملاق أخذت ليلي تفكر فيما تستطيع أن تفعل لتخرج الأسرة من وهدتها وعندئذ تقدم أحد أصدقاء أبيها - ممن كانوا شديدي الإعجاب بعذوبة غنائها ورخامة صوتها - بمشروع يرمي إلى الارتفاع بموهبتها الموسيقية وتوجيهها توجيها فنيا يعود عليها وعلى أسرتهما البائسة بالنفع الجزيل والخير العميم ، وترددت الفتاة بين الأقدام والأحجام وأخيراً أذعنت لارادة الرجل وانتقلت مع أسرتهما إلى بغداد ، وهناك أقبلت على تعلم أصول الموسيقى على يد بعض الاخصائيين حتى حذقتها وأملت بأصولها الماسما تاما ، وبعد زمن دفع بها إلى بعض الحفلات الخيرية فلقيت نجاحا عظيما ونالت أعجاباً كبيراً ، وكنت في ذلك الوقت أطوف في الأقطار الشرقية للبحث عن وجوه جديدة ، فلما بلغني خبرها أسرع إلى بغداد وعرضت عليها العمل معي في فلي الجديد ، وكم كانت دهشتي كبيرة حينما رفضت السفر إلى مصر رفضاً باتاً وأعرضت عن كل عروضي المغرية اعراضاً تاماً ولكنني مازلت بها حتى قبلت الرحيل بشروط فرضتها علي وقبلتها عن طيب خاطر ، هذه هي القصة بحذافيرها ولا شك

أنكم توافقوننى على أنها لا تشتمل على شيء جديد يعول عليه فى الإنتاج السينمائى -

فقال شوقى - سواء أكانت هذه القصة صحيحة أم غير صحيحة فبوسع الخيال أن يخلق منها شيئاً مشيراً -

فقال الآخر - مادام هذا هو رأيك فماذا لو عهدت اليك بهذه المهمة ؟

فأجابه - كم يسرنى أن أقوم بهذه المهمة ، ولكن لاشك أننا نحسن صنعاً اذا أرجأنا ذلك لحين حضورها -

فقال الآخر - من حسن الحظ أنها أرسلت الى أمس تنبئى بحضورها فى نهاية الاسبوع القادم ولا شك أنه سيكون من دواعى سرورى أن أقوم بواجب تقديمها اليكم جميعاً -

فمالت فائزة - كم أنا مشوقة لرؤيتها ، ترى أجميلة هى ؟ -

فأجابه - أوه ، انها رائعة الجمال ، وأجمل ما فيها وداعتها وجاذبيتها الطاغية -

وهنا قالت أمها - لست ادرى لماذا توجه عنايتك لدراسة حياة مثل هذه المطربة وعند الأستاذ شوقى من الروائع ما يبنى بالحاجة ؟

فقال شفيق - آه ، حقاً ، أن الأستاذ شوقى قصصى مبدع بارع

ولاشك اننى أنجح غاية النجاح اذا مدنى بقصة من قصصه الرائعة -

فقال شوقى - اننى على أتم استعداد لتحقيق رغباتك يا أستاذ شفيق ولكنى لن أستطيع البدء فى ذلك الا بعد الفراغ من تدوين قصة حياتى -

ففتفت فائرة - قصة حياتك !! لا بد أنها شىء مثير للغاية - فأجابها - هذا هو اعتقادى -

فسأله شفيق - ومتى تفرغ منها ؟ -

- بعد أربعة أيام أو خمسة اذ لازال أمامى ثلاثة فصول غير الخاتمة -

- حسنا، وأننى لأرجو الا تحرمنا من الاطلاع عليها بعد الفراغ منها، فهل تعدنا بذلك ؟ -

- بكل سرور على اننى لن أفعل ذلك الا اذا قتم بمساعدتى فى وضع الخاتمة، فهل تعدوننى أتم الآخرون بذلك ؟ -

فقالوا جميعا - نعم - نعم -

وقال عارف باشا - لاشك أن هذا سيكون عملا مسليا للغاية -

ومرت أيام أذعن فيها شوقى لرغبات هذه الصحبة

أو الامتناع عليها ، فاندمج معهم اندماجا خالصا وشاركهم في كل نواحي النشاط التي كانوا يمارسونها بين الماء والشمس والهواء ، وتوثقت بينه وبين الاستاذ شفيق وأفراد الأسرتين الألفة والمودة والصداقة القوية فكان يلزمهم في كل رياضة يهينونها في الحدائق والغابات والشواطىء البعيدة ، وكان لا يفارقهم الا ساعات قلائل كان يخلو فيها الى نفسه للفراغ من قصة حياته ، وكان قد بنى عزمه على أن يمد اقامته أسبوعا آخر كي يتاح له لقاء المطربة الجديدة والتعرف اليها ولكنه أكره على اختصار مدة اقامته بسبب ورود رسالة من أمه بالقاهرة تحمل نبأ مرض زوجها وتطور حالته الأمر الذي استلزم سرعة عودته للقيام بواجبه نحوه على أنه لم يغادر المصيف الا بعد أن أتم تدوين قصته « حطام قلب » في دفتر متوسط الحجم أهدها للاستاذ شفيق ليطلع عليه اولاً ثم يقوم بسرد القصة على بقية رفاقه اذا حازت اعجابه .

و ذات صباح بعد رحيله بأيام بدا لأفراد الأسرتين أن يخرجوا للنزهة في الخارج وكان الاتفاق قد تم على أن يصحبهم الاستاذ شفيق ليحكى لهم قصة شوقي في احدى الحدائق ، وبينما كان الجميع على أهبة الرحيل أقبل أحد الخدم وناول شفيق

البرقية التالية :-

سأصل مساء اليوم أو غدا مع أفراد الاسرة ؟

ليلي

وهنا التفت الى من معه وقال - انها من ليلي تقول فيها بأنها ستصل اليوم أو غدا ولذا فأنى استأذنكم فى البقاء هنا انتظارا لحضورها أما أنتم فتستطيعون أن تمضوا الى نزهتكم وأما القصة فتستطيع فائزة أن تنوب عنى فى قراءتها لكم -

قال ذلك ثم مديده وناول فائزة الدفتر واستطرد يقول - انها قصة مثيرة للغاية - فسألته بلهفة وهى تقلب الدفتر بين يديها - أذن فقد قرأتها كلها ؟ -

- طبعا وما كان بوسعى أن أفعل غير ذلك ، أنها قصة مشوقة وجديرة بالاعجاب -

فقال عارف باشا - أحقا ، اذن فسنمضى يوما سعيدا ممتعا - فقال وهو يودعهم عند الباب الخارجى - بكل تأكيد..... انها أغرب قصة سمعت بها فى حياتى ، الى اللقاء -

وقضت فائزة ومن معها وقتا ممتعا بين المشاهد الطبيعية التى تزخر بها البقعة الخلائية الجميلة وأخيرا استقر بهم المقام فى احدى الحدائق الغناء حيث تناولوا طعام الغداء ولما طاب لهم

المجلس بعد الفراغ من الطعام جلسوا في استرخاء في ظلال خيمة جميلة وبعد لحظات أمسكت فائزة الدفتر بين يديها وأخذت تتلو عليهم ما يلي : —

الفصل الثانى

ولدت عام ١٩١٨ وكانت أسرتنا ضيقة الحال مقترًا عليها
فى الرزق تعيش عيشة متواضعة على راتب أبى الضئيل ، ولكن
فقرنا كان من نوع البؤس المستور الخجل ، بؤس عائلة الموظف
الصغير الذى يريد رغم فقره أن يحافظ على مظاهر النعمة ليأخذ
مكانه بين غيره من الموظفين المحترمين مها كلفه الامر ، وكان أبى
يشغل وظيفة كتابية صغيرة بأحدى المصالح الحكومية بالقاهرة
وقد قضى فى وظيفته الصغيرة هذه طوال سنى حياته دون أن ينعم
فيها بترقية وليس ذلك لأنه كان موظفا خاملا ، كلا ، بل لأنه
كان يجهل جهلا تاما سبل التقرب والزلفى التى كان يجيدها غيره
والتي كان قوامها المبالغة فى التودد للرؤساء وارضاءهم والتخلى
أمام رغباتهم عن كل مبادئ الاخلاق والشرف والكرامة ،
ولقد تحمل أبى هذا الحرمان فى بطولة صابرة وكان يرى زملاءه
الخاملين يتخطونه ويسبقونه الى المناصب المغرية فيغضب أحيانا
ويتظلم أحيانا أخرى واسكنه كان فى كل مرة يشكو فيها بحاجه
بالكلمة الحاسمة التى لا يجد مفرًا من الاذعان لها والتسليم بها

وهي - هذه ارادة المدير العام - فيعود مكتئبا مهموما ليضع كل اهتمامه في عمله وفي القيام بواجباته نحو أسرته ، وكنت وحيد أبوي الأمر الذي جعلها شديدي العناية بي والعطف على والتعلق بي ، وكان أبي أشد حبا لي وشغفا بي ولعل مرجع ذلك زيادة على الاعتبارات السابقة قوة ما كان بيني وبينه من مشابه وقد كان لعنايته الفائقة بي والاشراف التام على شئوني أكبر الأثر فيما ظفرت به في حياتي الدراسية والعملية من تقدم وتفوق ونجاح فلم أكد أبلغ العاشرة حتى كنت قد ظفرت بالشهادة الابتدائية بتفوق وحصلت على خبرة كبيرة في هوايتي الرسم والموسيقى وهما الهوايتان اللتان كان يتعشقهما أبي وبذل جهدا كبيرا في تلقيني أصولهما وقواعدهما المختلفة .

وكانت أمي تصغر أبي بخمس عشرة سنة وكانت في الوقت الذي ظفرت فيه بالشهادة الابتدائية تشارف السادسة والعشرين من عمرها وكانت تبدو في نظري بارعة الحسن تمثل في امتشاق قامتها واشراق ملامحها ونضرة وجهها تمثالا حيا للجمال ، وكانت كافة الاعباء المنزلية ملقاة على عاتقها وحدها ومع ذلك كانت تقوم بها في احتمال نادر وصبر كريم ، كان عليها أن تطهى للطعام وتغسل الثياب وترتب الأثاث وتراجع الميزانية وكان

عليها الى جانب ذلك أن تعمل الليل والنهار لكي تهيب لنا
الراحة والسعادة والحياة الهادئة والمظهر اللائق في حدود
ميزانيتها الضيقة المحدودة .

وقضينا هذه الأعوام التسعة على هذه الوتيرة لا نعرف
من ملاحى الحياة ومتعها غير التنزه في الحدائق العامة أيام الجمعة
أو حضور حفلة سينمائية كنا ندخر ثمنها نظير الاستغناء عن بعض
وجبات الطعام أو ابدالها بوجبات تافهة القيمة ، وتسير وتيرة
الحياة على هذا المنوال الى أن دخل ابى ذات يوم مهرولاً نحو
أمى ليعلن لها في فرح غامر النبأ العظيم ، نبأ وقوع القرعة عليه
لتمثيل زملائه من صغار الموظفين في الحفلة الخيرية الساهرة التي
يقيمها سعادة المدير العام لمساعدة جمعية الفتيات الضعيفات ،
وأن عليها أن تستعد لتبدو معه ومعى في مظهر لائق مشرف ،
وفي مساء اليوم التالى لبست أمى أبهى ما لديها من ثياب وتألفت
ما وسعها التأنق ثم خرجت معنا وقصدنا مكان الحفلة ، وكان
المكان عند وصولنا يجمج بأناس أنيق المظهر ويعج بأصوات
الرقص والموسيقى فاتخذنا مجلسنا الى مائدة في طرف المكان
ورحنا نتأمل في عجب ودهشة وذهول نحور النساء المكشوفة
وظهورهن العارية وضحكاتهن الماجنة ونكاتهن الفاجرة ، وبينما

نحن في غمرة الخجل والعجب اذا بشاب أنيق الملبس وسيم
الوجه يترك مكانه خلسة من احدى الموائد ثم يغيب لحظات
ليظهر فجأة على مقربة من مائدتنا ثم يدور على عقبه بحركة
سريعة فيتقابل نظره بنظر أبي وفي اللحظة التالية هتف وهو
يدنو من أبي مصاحفا :

- اهلا وسهلا امين افندى ، أنت هنا من زمن ؟ -
فهب ابى واقفا على قدميه وأخذ يده وصاحفه في أدب جم قائلا
- مرحبا بك يا توفيق بك ... انا هنا منذ دقائق واظن انه لم يفتنا
شيء كثير من البرنامج -
فقال الآخر وهو يرمق أمى خلسة بنظرات هى مزيج من الدهشة
والاعجاب

- أنت رجل محظوظ يا أمين افندى ولولا ذلك لما فزت
بالقرعة امس دون غيرك - فقال أبى - صدقت ، ولا شك أنك
ستدهش كثيرا اذا علمت انها اول مرة نحضر فيها لمشاهدة
مثل هذه الحفلات -

فابتسم الآخر ابتسامة رقيقة وقال - أحقا ؟ آمل أن يكون كل
شيء هنا قد راق الهانم -

والتفت الى أمى فأسرع والدى وقال - اه ، لا شك انها مسرورة

للغاية - وسكت لحظة ثم التفت الى أمى واستطرد - هذا توفيق بك سكرتير خاص سعادة المدير العام -

فنهضت أمى واقفة فى حيرة وارتباك وتعثر وصاحت اليد التى امتدت اليها دون ان تنبس شفتاها بكلمة فسألها الشاب وهو يحرق فى وجهها مليا

— هل هذا هو رأيك فى الحفلة حقا؟ -

فقالت متلعثمة وهى مطرقة الرأس - نعم أنها لا ريب حفلة شائقة -

فقال - وسأين العجب العجائب كلما تتابعتم التمر ، أنها اول حفلة يقيمها سعادة المدير بوصفه الرئيس الفخرى لجمعية الفتيات الضربات ولكنه سينجح نجاحا منقطع النظير بفضل الجهود الذى بذله فى اعدادها -

وهنا دارت عيناه لتلقيا على نظرة سريعة قصيرة تبعها بقوله وهو يربت كتفى فى عطف ظاهر - ابنك الوحيد؟ -

فأجابه أبى - نعم ، هذا ابنى شوقى -

فقال الآخر - تلميذ نجيب على ما أظن؟ -

فأجابه للغاية، لقد حصل على الشهادة الابتدائية هذا العام بتفوق. -
— بديع ... بديع جدا ، أمل أن يكون النجاح حليفه دائما -

وكنت أثناء هذا الحديث أحملق في وجه الشاب وأنا
أحس بديب غريب من الكراهية والاستمئزاز يتسلل الى
أعماق نفسي ويطنغى على مشاعري ، كان الشاب في نحو الخامسة
والعشرين من عمره وكان بوجه الجميل وشعره الذهبي اللامع
وملامحه الدقيقة وقوامه الأهيف وعينه الزوقاوين وحاجبيه
المرججين يشبه أنثى الى حد بعيد ، ولا شك أن هذا التخت
الظاهر كان وحده المسئول عما شعرت به نحو هذا الشاب من
نفور وزرابة واحتقار ، واني لاذكر هذه الليلة كما لو كانت
بالأمس لأنها كانت أول لقائي بتوفيق ذلك الأفعى التي خطت
في حياة كل منا أعماق الآثار .

وظل الشاب يتحدث مع أبي بضع لحظات أخرى
ثم حيانا وانصرف الى مائدة بعيدة وهو يختال بقوامه الفاره
وشعره اللامع ومظهره الأنيق وعدنا الى متابعة فصول البرنامج
واخذنا نشهد الرقصات وهن يرقصن رقصاتهن الفاجرة وقد
تأودت أعطافهن وتلوت أجسادهن على وقع النغم الموزون ،
وما فرغن من رقصهن وأنزل الستار حتى صعد أحد المنظمين
الى المسرح وأعلن أن النمرة التالية هي انتخاب ملك وملكة
الجمال من بين الحاضرين والحاضرات في الحفلة ، وأحدث هذا

النبا ضجة كبرى أعقبها صمت مطبق ، ثم راح ضوء قوى يتحرك على الوجوه باحثا منقبا والأناظر تتبعه فى لهفة الى أن استقر على وجه أمى وهنا ثبت الضوء وظل كذلك لحظة غير قصيرة ثم تحرك باحثا هنا وهناك الى ان عاد واستقر مرة اخرى على وجه أمى وأخيرا ارتفع صوت أحد المذيعين واعلان النتيجة ، النتيجة التى اسفرت عن اختيار أمى ملكة للجمال بين الحاضرات وتوفيق ملكا للجمال بين الحاضرين وما لبث أن أعقب ذلك هدير من أصوات التصفيق والاستحسان من جميع الجوانب وبعد لحظة تقدم احد المنظمين وطلب أن يتقدما الى منصة سعادة المدير العام لتسلم جائزتيهما ، وكانت المفاجأة شديدة الوقع علينا نحن الثلاثة وكانت أمى أشدنا دهشة وذهولا وحيرة وظلت فى مكانها مرتبكة واجمة تجيل بصرها هنا وهناك فى خجل غامر وصمت مطبق الى ان تقدمت احدى السيدات الارستقراطيات واستأذنت والدى فى مرافقتها الى المنصة ، فأوما ابى الى امى قهضت ومشت مع السيدة وهى تجر قدميها جراً بين الصفوف وشهدتها تصعد الى المنصة عن كذب ثم تقف امام رجل مهيب الطلعة جليل المنظر وتمد يدها وتصافحه ثم تستردها بعد لحظة وبها كأس ومجموعة من الهدايا ، وعادت

بعد وقت لتأخذ مكانها بينما في غمرة الارتباك والخلجل بينما كانت الأبصار تحقق بها وتنتهبها من كل جانب .

ومرت على ذلك أسابيع فاذا مهمة يسكلف المدير العام بها ابني يمنع بعد انجازها ترقية سعد بها أبي وطربت من أجلها أمي ، ولما حمل أبي أول مبلغ ناله من هذه الترقية الى أمي قال لها — عزيزتي ثريا ، ينبغي أن نهج أنفسنا بمتعة تدخل علينا وعلى شوقي السرور .

وبعد نقاش قر الرأي على ان نذهب جميعا الى الأوبرا لشهود أحد المسرحيات الشهيرة .

وفي خلال الشهر التالي لم يكن حديث ابني وامي ليتناول أمرا غير هذه الترقية ودراسة المشروعات والتغيرات التي ستترتب عليها ، وأنفقا في ذلك زمنا اخذا فيه يدبران الأمر للاحاق بأحدى المدارس الثانوية ولكن لم يكد ينقضى على ذلك أسابيع حتى سقط أبي فريسة لمرض شديد الوطأة لم ينج منه الا بعد أن أتى على جميع ما أدرناه من المال ، ولم يكن ضياع المال هو أهم النتائج السيئة التي تمخض عنها هذا المرض فقد كان هذا شيئا تافها بالقياس لتلك الرعاية المشثومة التي فرضها (توفيق) علينا فقد اخذ منذ اليوم الأول الذي مرض فيه ابني يوالى زيارته

له في المنزل للاطمئنان على صحته والعناية بشئونه ، وكنت أنا المكلف باستقباله وتوديعه في كل مرة يأتي فيها إلى المنزل أما أمي فقد كانت تحرص على تجنب لقائه ولم تظهر امامه قط طوال مدة المرض على كثرة ترده وغرابة مفاجئاته ، وكان (توفيق) يزورنا على العلات لا يضرب لحضوره موعداً وكان لا يأتي الا ومعه أحمال من مختلف التحف والهدايا وكان موقفه مني في جميع المناسبات موقف العاطف المحب الودود ، اما انا قد حاولت جهدي أن اقبل عليه وأحسن استقباله ولكن شعوراً غامضاً ودافعاً خفياً كانا يقفان دائماً دون هذه الرغبة الطيبة ، فقد كان يبدو لي رغم جاذبيته ومظهره وتودده مخلوقاً شريراً وكائناً شاذاً مريباً ، وتتابع زيارته إلى ان شفى والدي وحينئذ قل ترده ثم انقطع عن زيارته ولم نعد نراه إلا في المناسبات. وتمضى امور المنزل على ما تعودت أن تمضى عليه من النشاط والمرح والرضا لولا هذه السكابة التي بدأت تتسلل إلى ملامح ابني ، وهذا القلق الحبيس الذي أخذ يظهر ويشتد شيئاً فشيئاً إلى ان بلغ بعد شهر حداً فسدت معه أمورنا وملاً حياتنا حزناً وغماً وهماً ، كان يبدو عليه أن أمراً خطيراً يشغل باله ويثقل عليه ويمعن في تعذيبه ! وكان اذا جلس معنا جالس

جامداً شاردداً في صمت مطبق كالذاهل وكنا اذا استوضحناه جلية الأمر أبى أن يفضى إلينا بمكنون سره وخبيئة نفسه ، وكان ينسب كل ما يعاينه إلى بعض متاعب تتعلق بعمله ، ولكنى كنت أحس وأنا أرقبه انه يعانى لونا من الكبت الغامض يتجلى في حركات عصبية حادة ، وافعال وأقوال يشيع فيها القلق والتعثر والاضطراب .

وذات يوم ولجت أمى غرفته وقالت وهى تأخذ مكانها بجواره — أمين ، اننى لم اعد احتمل هذه الحال ، يجب أن تبوح لى بكل شىء مهما كانت خطورته ، اننى زوجتك ومن حقى ان اعلم ما هنالك .

ولكنه ظل صامتا لا يحير جوابا فعاظها منه هذا العناد وامتلات نفسها بالفضول وقالت

اننى لا ارى سببا معقولا يبيح لك كتمان ما تعانيه عنى يا أمين ، فبالله أخبرنى فقد أكون خير معوان لك على ما تعانيه — فتحرك فى مكانه وقال فى نبرات يشيع فيها الاضطراب — لاشىء ... لاشىء يا عزيزتى —

فتأثرت من كلامه وقالت وهى تعبت فى شعره بأناملها — ألا تريد أن تفضى الى الحقيقة ؟ —

فقال في شبه صرخة مكتومة - وما شأنك بذلك يا ثريا -

فقلت في استعطاف - اننى زوجتك يا أمين ، أفليس من حقى أن أعرف السبب ؟ -

فأجابها وهو يشيح بوجهه عنها - مادمت تلحين فاعلمى أنه الممرض ، لقد ترك فى جسمى وعقلى أثارا مروعة -

ولم أسمع بعد ذلك شيئا فقد نهض أبى وأغلق الباب عليها وبقيت فى مكانى دقائق خرج بعدها أبى وهو يغمغم بكلمات مهمة فلما رآنى تظاهر بالهدوء ووقف يحدثنى فى شئونى المدرسية ثم مضى الى الخارج وعلى وجهه دلائل الألم والأستياء .

وانقلبت حياتنا بعد ذلك من النقيض الى النقيض فلم أعد أرى بشرا ولا ابتساما ولا بهجة ولا اشراقا ، وأخذت أحس صمتا عميقا مريبا لم استطع ان أفهمه او أتبين له علة ، ثم انقطع هذا الصمت حين جاءنا أبى ذات يوم وأعلننا بأنه مرتحل الى الصعيد لاداء مهمة كلفه بها سعادة المدير العام وأنها ستستغرق أكثر من أسبوع ، ولقد همت أمى وقتذاك أن تتكلم ولكنه أسرع وأسكتها بإشارة من يده فلم يسعها الا أن تظهر الطاعة والامثال .

وفي الصباح الباكر كان قد أعد عدته للرحيل ، ووقفت مع أمي على الباب نودعه ، وكان ذلك في صباح يوم حار كثيب مرهق ، ولا أدري لماذا أطلنا الوقوف بالباب هذه المرة وقد تعلقنا أبصارنا في لطفة الى شبحه الممعن في الذهاب نحو الشارع الرئيسي ، وأخيراً استدرنا واتجهنا في بظء وثاقل الى الداخل ، وقضينا خمسة أيام غشيتنا فيها غاشية من الوحشة والوحدة وفي صباح اليوم السادس استيقظنا فجأة على صوت طرق مريب على الباب ، فانتفضنا وأسرعنا الى الباب ونحن نشعر بخوف مبهم ، ثم وقفنا نصغي الى صوت أحد الشرطة وهو يحدثنا عن حادث مروع ... عن غرق أبي في النيل عند بلدة سمالوط وعن وصول جثته منذ ساعة الى المستشفى ، فصحنا في فزع وانطلقنا الى المستشفى في ارتياح وجنون ، وهناك وجدناه جثة هامة نافرة المعالم ، يحيط بها لفيف من الموظفين وعلى رأسهم المدير العام وسكرتيه ، فلما وقعت أبصارهم علينا تقدم المدير الى أمي ومد يده اليها مواسيا معزيا ، ثم طفق يتحدث عن أبي فأخذ يمتدح صفاته ويثنى على نزاهته ويبدى أسفه لحرمان المصلحة من كفاءته وجدده ونشاطه ، وفي ختام حديثه طلب منها أن تتشجع

وأن تصبر على مصابها ثم قال لها وهو يشد على يدها أنه سيقوم
بواجبه نحو أسرة الفقيد وأن عليها أن تعتمد على رعايته
وعنايته الشخصية .

الفصل الثالث

ولم يكذب يونس بك راضى المدير العام لمصلحة (...)
فإن يده القوية السخية المسددة سرعان ما امتدت إلينا فانتشلتنا من
تيار المصاعب والمعاطب ، وذادت عنا أشباح الخوف والجوع
والذل والتشرد ، وكان أول لقاء لنا معه بعد مصرع أبي يوم
ذهبنا إلى الوزارة لتسلم المكافأة التى قررت الحكومة صرفها
لنا عن العشرين سنة التى قضّاها والدى فى خدمة
الحكومة ، وكان ذلك فى صباح اليوم التالى لفصلى من مدرسة
شبرا الثانوية بسبب العجز عن سداد المصروفات المدرسية ،
ولقد أثار نبأ صرف المكافأة فى نفس أمى آمالاً عريضة فظلت
طول الطريق تتحدث معى عن خطط المستقبل وما أعدته له
من مشروعات ، وتابعتنا سيرنا والظنون تطوف بأذهاننا حتى بلغنا
الوزارة ، وهناك تبعنا أحد الحجاب إلى غرفة سكرتير المدير ،
ولم نكن طول المدة التى انقضت على وفاة أبى قد رأينا توفيق
أو سمعنا عنه فلما دخلنا الغرفة رأيناه جالساً إلى مكتبه يمسح
على خصلات شعره المتموج ومن حوله أربع فتيات كن

يتضحكن معه بصوت مرتفع ، وما أن وقع بصره علينا حتى هب واقفداً وتقدم إلى منتصف الغرفة باسم الثغر ثم مد يده وصاحنا في رقة وهو يقول - مرحباً بك يا ثريا هانم .. لقد كنت منذ لحظة أحدث صديقاتي عنك وعن سيجايالك - والتفت إلى الفتيات وقال - ثريا هانم حسنين -

ثم أخذ يقدمهن إلى والدتي قائلاً - شوشو هانم مختار وشقيقتها فيفي كريمتا المرحوم مختار باشا موافى الوزير السابق ، سوسن هانم حمدي ، عصمت هانم الخطيب قرينة عبد المنعم بك الخطيب -

فتقدمن إلى والدتي وأخذن يصاحنهما باحترام ممزوح بشيء من الاستخفاف والبرود وبعد أن أخذنا مجلسنا مد فكره يده وجمع بعض الأوراق ثم استأذنهن ودخل إلى غرفة المدير ، وامتدت بين الحاضرات لحظة صمت قصيرة قطعها شوشو قائلة وهي تتأمل وجه أمي الشاحب الزاخر بالألم والعذاب - رفقا بنفسك يا ثريا هانم ، فما ينبغي أن يفسد الأحياء حياتهم من أجل الاموات كما تفعلين -

فتأوهت أمي وقالت - آه ، ليتني أستطيع ... أن الخطب أفدح بما تظنين فلقد مات المرحوم ولم يترك لي ولا لوحيدة المسكين

شيئاً نعول عليه في الحياة .

فقالت أختها فيني في استخفاف - مسكينة ، كم أعجب لهؤلاء الموظفين الذين لا يعنهم في الحياة إلا قضاء متعاتهم ولذاتهم . وقالت أخرى - لو كنت مكان زوجك لما أقدمت على الزواج قبل أن أجد ما يضمن للعائلة ما يعصمها من الهوان ، الا سحقاً لهؤلاء الانانيين الذين لا يفكرون الا في أنفسهم -

وقالت شوشو - لقد سمعت أنك جئت من أجل المعاش الذي رتب لك واني لأرجو أن تكون الوزارة سخية معك لاسيما وقد مات زوجك أثناء تأديته لعمله -

فقالت أمي - هل لديك فكرة عن النظام المعمول به في مثل هذه الأحوال ؟ -

فأجابتها - والله يا أختي لا أدري بالضبط ، ولكن صبراً ... اننى أذكر أنه لما مات والدى أبت الحكومة أن تشاركنا في معاشه وتنازلت من تلقاء نفسها عن نصيبها فيه ، هذا الى جانب تبرعها بالانفاق على أخوتي الأربعة في التعليم الثانوى والجامعى -

وهنا قالت أختها فيني - وليس معنى هذا أننا كنا بحاجة لهذه المعونة ، فقد ترك لنا المرحوم من الأموال والضياع ما يغنيننا عن كل عون ، ولكن ما حيلتنا أمام الحاج الحكومة والحاف

الأصـدقاء -

وهنا قالت سوسن هانم متسائلة - دعونا من ذلك وخبريني
ياثريا هانم ، هل سيصرفون لك مكافأة أم معاشا ؟ -
فأجابتها - اننى لا أدرى شيئا عن هذه النظم ، وكل ما أعلمه أن
المرحوم كان موظفا بعقد -

فقالت الأخرى - اذن فسيمنحونك مكافأة ... يا للزوجة
المسكينة -

فتضرج وجه أمى وعلا وجهها الألم والجزع ولحظت عصمت
هانم مابدا عليها من تغير واضطراب -

فقالت ملاطفة - لا يحزنك ذلك ياثريا ، أن المكافأة قد تكون
أحيانا من السعة بحيث تنفى بالحاجة -
فقالت أمى بحسرة مكبوتة - آه ... آمل ذلك .

وأخذن يتجاذبن أطراف الحديث فى هذا الموضوع
الى أن فتح الباب المؤدى الى غرفة المدير وظهر توفيق على عتبة ،
وعندما نظرت اليه أمى أو ما إليها ودعاها للدخول فنهضت
واستأذنت الحاضرات وأخذتني من يدي واتجهت صوب حجرة
المدير ، وما أن وضعنا أقدامنا على العتبة حتى انسحب توفيق
الى الخارج وأغلق الباب وراءنا .

وكانت غرفة المدير واسعة فسيحة مؤثثة بأروع أثاث وأبدعه وكان الرجل جالسا منحنيا على بعض الأوراق فلما أحس بمقدمنا استوى واقفا واتكأ على طرف المكتب بأحدى يديه ومد الأخرى الى أمى وهو يقول :

— أهلا وسهلا ثريا هانم تفضلى -

وأشار الى مقعد عن يمينه فجلست ثم صاحفتى ودعائى الى الجاوس بحوارد فاتخذت مجلسى حيث أشار فى استكانة ورحت أرمق هذا الرجل المهيب بنظرات مأوفا الاكبار والرهبة والتوقير .

وأود أن أتوقف هنا قليلا لألقى شيئا من الضوء والوضوح على شخصية يونس بك لأهمية دوره فى هذه القصة ، كان الرجل فى الخامسة والاربعين من عمره ، ضخيم الجسم ، قصير القامة ، احمر الوجه ، له شارب قصير مشذب وصوت عميق متزن ونظرة صارمة تنبعث من عينين زرقاوين ضيقتين متوقدتى البريق ، اما فمه فدقيق رقيق الشفتين يدل انضمامها على قوة العزيمة والقدرة على النجاح فى كل عمل يزاوله .

قالت أمى بعد لحظة - آمل ألا أكون قد تسببت فى ازعاجك ، لقد قالوا لى أن الوزارة قد انتهت من تقدير المكافأة فحنت لاستلامها ولتقديم الشكر لك على المعونة الطيبة التى أدت

الى سرعة انجازها -

فأجابها وهو ينظر اليها فى عطف واشفاق - عفوا ياهانم ... اننى الى الآن لم أقم بواجبى نحو أمين أفندى ... أما فيما يتعلق بالمكافأة فسأرى الآن ماتم بشأنها -

قال ذلك ثم انحنى على آلة التليفون وطلب من توفيق احضار الأوراق الخاصة بالمكافأة وبعد لحظات دخل توفيق وناول المدير ملفا أحمر اللون فألقى هذا على الأوراق نظرة سريعة ثم رفع بصره وقال لتوفيق - ما هذا ؟ أن المبلغ أقل مما ينبغى -

فأجابه - أن المكافأة تصرف عادة بواقع نصف شهر عن كل سنة يقضيها الموظف فى الخدمة -

فقال الآخر - هذا صحيح ولكنى أرى أن المبلغ مع ذلك أقل من القيمة المطلوبة -

فأجابه - هذا راجع الى الخصم الذى أجرته الوزارة بسبب وجود تلف فى بعض الأدوات التى كانت بعهدة المرحوم أمين أفندى -

فقال الآخر - آه ... هذا شئ آخر . ولكنه على أى حال شئ يوسف له لأنه يحرم الورثة من معظم المكافأة -

وحالما انصرف توفيق تتطلع المدير إلى أمى وقال

- أننى شديد الأسف ياثر يا هانم ، أن المبلغ الذى سيصرف لك هو ~~٣٨~~ ^{١٣} ٤٨ جنيه وهو فى الواقع مبلغ زهيد ولكن ... -
فقاطعته أُمى فى مرارة وخيبة أمل - ثلاثة عشر جنيها !! أهدا كل ما تقدمونه جزاء تضحيته وتفانيه -

فأجابها وهو يتأمل جزعها - هذه قواعد مالية لا حيلة لنا فيها ياثر يا هانم ... ولكن علام كل هذا الجزع الذى يعلو سيماءك ؟ -
فقلت فى صوت يغص بالآلم - كيف لا وليس لنا ما نعول عليه فى الحياة -

فسألها - هذا شىء محزن ... أليس لك أقارب ؟ -

- نعم ... ولكنهم ليسوا فى سعة وقد تقطعت بيننا وبينهم الأسباب منذ سنين -

فقال الرجل فى عطف وتأثر - لا تجزعى ياثر يا هانم ، ثقي بأنه يسرنى جداً أن أقوم شخصيا بتقديم كل مساعدة ممكنة -
فأجابته فى حيرة وارتباك - آه ، شكراً لك ياسعادة البيك ، ولكن أما من سبيل للتظلم ؟ -

فقال - أرجو أن تثقى بأنه لو كان هناك سبيل لما توانيت لحظة فى السير فيها لمصلحتك ، ولكن ليس معنى هذا أن تنظرى إلى الحياة من خلال منظار اسود ، فان هناك من هو على أتم

استعداد لمساعدتك والأخذ بيدك . واثى تشديد الأمل فى ان
تسمح لى بأداء واجبى نحوك ونحو ابن الفقيد على النحو الذى
يرضيك .

فقلت وهى تنظر إلى الأرض لتخفى خجلها وارتابها - هذا
كرم منك بإسعادة البيك ولكنى لا أحب أن أثقل على أحد ،
وسأحاول أن أجد وسيلة تعيننى على أمرى —

فقال الرجل - اسمح لى أن أقول أن واجبى نحو الفقيد يحتم
على أن أفرض عليك وعلى ابنك نوعا من الرعاية والحماية .
فترددت لحظة ثم قالت - إذا كان محققا أن هذه الرعاية لا تثقل
عليك ، وإذا كنت تشعر أنك تريد حقا أن تقللنا من عثرتنا
فأننى أقبل مساعدتك عن طيب خاطر .

فأجابها - طبعاً ... طبعاً ... اننى أريد ذلك من صميم قلبي ،
والآن لنبدأ الحديث عن مستقبل ابنك ، فى أية مدرسة هو ؟ -
— بالسنة الأولى بمدرسة شبرا الثانوية —

— هذا حسن ... أن ناظرها أحد أصدقائى وبوسعى أن
أوصى به خيراً ، ولكن خبرينى ألا ترين أنه من الأوفق أن
نلحقه بأحدى المدارس الداخلية كمدرسة حلوان الثانوية مثلاً -

فقلت — كم يسرنى ذلك لأنه يتيح له الفرصة للتوافر على دروسه في جو هادىء —

— حسنا ... سأنظر فى هذا الموضوع فى أقرب فرصة وسأحيطك علما بما يتم .. وبهذه المناسبة أين تقيمى الآن ؟ —
— بالمنزل رقم ٧ بشارع البراد بشبرا —

فدون الرجل العنوان فى مذكرة أمامه ثم قال — والآن أحب قبل أن تنصرفى أن أسمع منك كلمة كلمة تؤكد لى أنك واثقة بى وبوعودى —

فنهضت أمى وقالت وهى تصافحه — اننى أثق بك ياسعادة البيك ثقة لآحد لها —

وربت الرجل كتفى بعطف ومودة ثم خطا وشيعنا عند الباب .

الفصل الرابع

والآن أستطيع أن أقفز بكم بضعة شهور لأصور لكم مبلغ ما خطته عصا يونس بك السحرية من أثر في حياتنا ومدى ما أحدثته من تغيرات في مصائرنا ، ولأبدأ بنفسى فأقول بأن الرجل أتاح لى من أسباب الراحة والرغد والرفاهية ما لم يكن يتاح لى من قبل وما لم يكن يخطر لى على بال ، فقد ألحقنى بمدرسة حلوان الثانوية وأحاطنى برعايته الفائقة وعنايته البالغة فكان يتعهدنى بالزيارة ويقضى لى شئونى ويوالى الاستفسار عنى ولا يدعنى أحتاج إلى أحد ، هذا ما أحدثه من التبدل فى حياتى أما ما أحدثه فى حياة أمى فقد كان أعظم شأننا وأخطر أثرا إذ ما كاد ينقضى على وفاة أبى شهور قلائل حتى عقد قرانه عليها وأنزلها زوجة معززة مكرمة فى داره الأنيقة بمصر الجديدة وأحاطها هناك بكل أسباب الترف والسعادة والنعيم ، وتمضى الأعوام بعضها فى أثر بعض فاذا أنا أجد فى هذه الحياة الجديدة بين القسم الداخلى بمدرسة حلوان الثانوية وبين دار أمى وزوجها ترفا لا يوصف ونعيا لا حد له ، وإذا بذكرىأتى

عن بؤس الماضي وشقائه تضعف وتتضاءل ، وإذا كل شيء في هذا الماضي ينمحي قليلا قليلا ويتلاشى شيئا فشيئا الا شيئا واحدا بقي كما هو لا يضعف ولا يمحي وإنما بقي مرتسما في ذاكرتي ؟ ارتساما قويا ملحا الا هو منظر جثة أبي الطريحة في المستشفى ومعالم وجهه المثيرة المروعة .

وكان يونس بك شديد الشغف بأمي وكانت هي من جانبها تبادله ذلك الحب وكانا يقضيان أوقاتها دائما منذ زواجهما معا في خلوة ولذلك قضيت صباي وفجر شبابي وحيدا واضطرت لسكى أزيح كابوس الوحدة والانفراد أن أخلق لنفسى أسبابا للنسلية فكنت أمضى أوقات فراغي في التمرن على الموسيقى وقرأة الكتب الأدبية وكتابة القصص والمقالات وغير ذلك من ألوان النشاط والهوايات المختلفة التي كان يتفتق عنها خاطري . وكان توفيق يتردد على الدار ويزور يونس بك وأمي في كل وقت في غير كلفة وقلبا كان يمضى يوم لا أراه فيه معها ، وقلبا كنا نمضى الى سهرة أو نزهة الا كان رابعنا .

وتنقضى خمسة أعوام أحصل بعدها على شهادة البكالوريا ثم التحق بكلية الزراعة بالجيزة وانصرف بكليتي الى عملي فأظفر بالأولوية في امتحان البكالوريوس ثم أرسل في بعثة

الى انجلترا وأعود منها بعد أربعة أعوام أخرى لأقبع في دار
مصر الجديدة انتظارا للوظيفة ، وكنت في ذلك الوقت أناهز
الثالثة والعشرين من عمري وكانت شخصيتي تقوم على طراز
من العادات والأخلاق يغاير الطراز الشائع بين غيري من شباب
هذا الجيل ، فأما أخلاقي فانتقباض عن الناس ونفرة يحسبها الرأي
صلفا وكبرا وما هي بشيء من ذلك ولكنها الرزانة والوقار
والبعد عن سفساف الأمور والترفع عن مخالطة كل من لاتعجبني
صفاته وأخلاقه ، وزهد في حياة اللهو واحتقار للعريضة والمجون ،
وليس أدل على ذلك من أنني عشت طوال هذه السنوات دون
أن أذوق الخمر أو أمارس متعة من المتعات التي تنجم عن صحبة
النساء ، وكان زملائي يرون ذلك ويعتبرونه ضربا من ضعف
العاطفة وبرود الطبع ، ولكن هذا يخالف الحقيقة إذ كنت
مخلوقا مضطرم العاطفة مرهف الحس تجيش نفسه بالمشاعر
النبيلة ويتعطش قلبه إلى الحب النقي الذي لا يغشى حواشيه زيف
ولا يرقى إليه نفاق ، أما عاداتي وميولي فكان أبرزها ميل شديد
للعيش في احضان الطبيعة ، وشغف بمتابعة المواسم المختلفة في
أوقات الفراغ .

ولم تكن أمي تذكر أبي في أحاديثها مع زوجها الا نادرا ،

كانما كانت تتحاشى أن تثقل بسيرته على قلبه . وكان يبدو
لى أن اسم أبى يعذب الرجل ويقض مضجعه فما من مرة ذكر
اسمه فيها أمامه الا تسال الاضطراب الى حياه وعرا ملاحه شيء
غير يسير من مظاهر القاق والشحوب ، وكنت أرى ذلك وأحسه
فلا يثير فى نفسى تساؤلا أو امتعاضا لعلى بمبلغ اندفاعه فى
حب أمى وشديد غيرته الطائشة عليها ، على أن هذا القاق مالبت
أن استحفل أمره بعد عودتى من أوروبا ثم تحول وتطور بعد
أشهر حتى أخذ شكلا جديدا مس حياتى فى الصميم .

ففى ذات يوم كنت جالسا أقرأ له قصة كتبتهما لأحدى
المجلات الاسبوعية وكان الرجل جالسا أمامى فى استرخاء يتابع
كلماتى فى شغف ولذة ويؤمن على بعض الفقرات فى إعجاب
ورضا وسرور ، واسترسلت فى القراءة ثم استغرقت فيها استغراقا
انسانى نفسى واشتمل على اشتمالا وقضيت فى ذلك وقتا ثم رفعت
رأسى ونظرت اليه بغتة وهنا رأيت ما جعل الصوت يحتبس فى
حلقى والكلمات تموت على شفتى ، كان الرجل جالسا وعيناه
مصوبتان الى وجهى كمن يتطالع فى فزع الى شيطان ، وكان
وجهه محتقنا منقلب السحنة بشع المعالم وما أن التقي نظرى بنظره
حتى ارتعد فى مكانه وحاول أن يحول عينيه عني ولكنى أفقدت

عليه محاولته وقلت له على الفور

— عمى ! ماذا يفزعك ؟ لماذا تنظر الى هكذا ؟ —

فقال وهو يجهد لامتلاك نفسه — لاشيء ... لاشى يا شوقى ، واذا

كان بنى من شيء فسيبه قصتك المثيرة ولا ريب —

فقلت فى دهشة — قصتى ، عجبا ... أنها قصة مسلية مبهجة على

خلاف العادة —

فتلحثم قائلا — آه ، حقاً ، لا أدري ماذا أصابنى ... يظهر اننى

مصاب بوعكة ، أناشدك أن ترجىء تلاوة القصة الى الغد .

قال ذلك ثم نهض وغادر الغرفة وهو يجر قدميه جراً ،

وقابلته والدتى فى وسط القاعة الخارجية فلما رأت ماعراه

أسرعت اليه وصحبته الى الطابق العلوى .

ومرت أيام كان الرجل فى خلالها يتحاشى لقائى وكان

إذا قابلى أسرع وتملص منى وانصرف لا يلوى على شيء ، وكنت

أرى ذلك فاجزع منه وأدهش له ، واستمر الحال على هذا

المنوال الى أن انفردت بامى فى أحد الأيام وكاشفتها بالموضوع

فما كان منها الا أن قالت :

— ليس فى المسألة كراهية بتاتا يا شوقى ... لقد فهمت كل شيء —

فقلت — أناشدك أن تخبرينى بالحقيقة والا فلا بقاء لى هنا ،

خبريني لماذا ينظر الى هذه النظرات المريبة ولماذا يتحاشى لقائى
على هذه الصورة ؟ -

فترثت قليلا ثم قالت وهى تتأمل سحنتى - لسبب واحد يا شوقى . .
لأنك بدأت تشبه أباك شها قويا عجيبا ، انك أصبحت صورة
طبق الأصل منه وهذا أمر يثير فى نفسه شعورا قويا من الألم
والغيرة -

وساد بيننا السكون برهة ثم قلت وأنا اتطلع الى نفسى فى مرآة
مقابلة

- آه ، ولكن لاشك أنها غيرة حمقاء مخبولة -

فقلت - انك لم تجرب مثل هذا الشعور يا شوقى ولو أنك ابتليت
به لالتصت له العذر -

وتطلعت الى لتعرف أثر كلامها فى نفسى فhezزت رأسى وقلت
- قد يكون هذا صحيحا وقد لا يكون ، وعلى أى حال فانى أرى
أن الخير فى مغادرة داره ابقاء على راحته -

واستدريت وأسرعت الى غرفتى وأغلقت بابها على .
وفى الليلة التالية استدعانى يونس بك الى غرفته وهناك لقينى
مرحبا وأجلسنى فى مودة الى جواره وقال - اننى أريد الكلام
معك يا شوقى فى مسألة هامة تتعلق بمستقبلك -

فلما أومأت له برأسي استطرد يقول - اننى أدرى الناس بكراهيته
للوظيفة الحكومية خصوصا وقد أصبحت مرتباتها هزيلة ضئيلة
لذلك كان سرورى عظيما لتوفيقى فى العثور على عمل يروى
ويتسق مع ميولك -

فقلت - حقا كم يسرنى أن أعمل بعيدا عن قيود الوظيفة
وجمودها .

فقال - وهذا ما سيحققه اشتغالك فى مزارع « رسمية هانم » ابنة
عمى فى نجع حمادى ، انك لم ترها طبعا لأنها قلما تغادر مزارعها
ولكن لاشك أنك سمعت عنها -

فقلت - أجل ، لقد سمعتك تتحدث عنها فى مناسبات قليلة -

فقال - أظن ذلك وستكون مهمتك ادارة مزارعها والاشراف
عليها وهى مزارع غنية واسعة وستجد هناك من أبواب النشاط
والتسلية ما يكفل تبديد السأم الذى تعانیه فى القاهرة -

فقلت - لست أطمع الى خير من ذلك وأنى لأرجو أن أوفق
فى خدمتها وأنال رضاها -

فقال - انها أرملة على جانب كبير من الثراء والطيبة وهى تعيش
هناك مع ابنتها الوحيدة عيشة هادئة ناعمة ولا ريب عندى فى
أن وجودك معها سيجلب لها كثيرا من المسرة -

فقلت - هذا ما أرجوه ، ويسرنى أن أبدأ العمل في أقرب فرصة -

فقال - سأكتب لها غدا ، والأرجح أنه سيكون في مقدورك الرحيل الى هناك في نهاية الاسبوع .

وهكذا شئت الاقذار أن أستقبل في حياتى مرحلة جديدة انفرجت معها هوة سحيقة بين شخصيتى فى الماضى وبين نفسى فى مستقبل أيامى .

الفصل الخامس

وقضيت أياما أفكر في هذه الرحلة وفي عملي الجديد وفي حياتي مع هذه السيدة وفيما عسى أن يكون لذلك كله من أثر في حياتي المستقبلية ، ولم أكن أحاول التفكير فيما عدا ذلك فقد كانت رغبتى في الرحيل عن هذه الدار والنأى عن أمى وزوجها تملك حواسى ، وكان هيامى بالحياة الجديدة الطالقة يستأثر بمشاعرى ويدفعنى الى التفكير فى أمر هذه السيدة وابنتها وما عساه يكون موقفى منها وموقفها منى بعد هذه الصلة الجديدة التى ستنشأ بيننا ، ولم يطل تفكيرى فى هذا الأمر كثيرا اذا ما كاد ينقضى الاسبوع حتى جاءنا كتاب من رسمية هانم يعان سرورها بحضورى وترحيبها بضياقتى واغتيابها باسناد الاشرف على مزارعها الى ، وعندها لم استطع كتمان فرحى فقضيت ليلتى مغتبطا مسرورا وأنفقت ساعاتى فى اعداد حقائى وحزم أمتعتى فلما كان الظهر نزلت وتناولت الغداء مع أمى وزوجها وعندما فرغت من ذلك وتهيأت للرحيل أقبل على يونس بك فعانقنى طويلا وصاحبنى فى حرارة وهو يزودنى بنصائحه وحين جاء دور

أمي قبلتني وضممتني إلى صدرها في تأثر وحنان ولم تسكد تفرغ من ذلك حتى غلبها البكاء ثم ولت منصرفة إلى غرفتها ، ولم أكن أقل منها تأثرا ولكن ما كدت أمضي بالسيارة في طريق إلى المحطة حتى استولى على شعور غامر من الارتياح لهذا الفراق وشغلني التفكير في رحلتي عن كل ما أثاره هذا الوداع في نفسي من عواطف . وبلغ من سروري بالخروج من هذه البيئة أنني حين أتخذت مجلسي بقطار الصعيد لم أجد من نفسي رغبة لاستعراض حياتي السابقة مع يونس بك وأمي ، وكنت في كل مرة أحاول التفكير فيها أصرف عن ذلك صرفا قويا وادفع إلى التفكير في حياتي الجديدة وما ينتظرني فيها من سعادة ونشاط وعمل ودعة .

كان شعور من الاغتياب يملأ قلبي وأنا أشهد قطار الصعيد الذي أركبه لأول مرة وهو يمعن في سيره صوب الجنوب وأخذت في أثناء ذلك استعرض بعين الخيال ما سألقيته لنفسي في حياتي الجديدة من أبواب العمل وما سأخلقه فيها من ألوان البهجة والنسلية والمرح ، أخذت أفكر في كل ذلك وأتمنى أن يطير بي القطار إلى نجع حمادى حتى ينبجلي هذا الغموض ويتاح لنفسي الوقوف من ذلك كله على غاية واضحة ، وما أدرى

أطال تفكيري في ذلك أم قصر ، اذ ما لبثت أن استسلمت
لاغفاءة طويلة غمرني فيها موج من الأحلام لانهاية له ، وكانت
الضيعة وأهلها أول شيء داعب مخيلتي ، وكان سبب ذلك مفهوما
ولكن الشيء الذي لم يكن مفهوما هو هذه الرؤيا الغريبة التي
رأيتها بعد ذلك والتي لم أتبين لها علة أو ادرك لها كنهها عقب
يقظتي واليكم ما رأيته :

رأيت نفسي أهيمن في شوارع بلدة ريفية مصرية بين
بيوت قائمة للبحث عن أبي ، وبعد زمن رأيته يمثل بعيدا ثم
يسرع مهرولا الى أحد الأزقة كمن يحاول الفرار من شبح
يطارده فأسرعت وتبعته وأنا أنادي به ولكنه راح يعدو بأقصى
قواه الى أن بلغ شاطئ النيل وهناك وقف فوق بعض الأحجار
المشرقة عليه وأخذ يدور ببصره هنا وهناك وهو يلثث ويزفر ،
وكان الى جوار قدميه سلم خشبي ضيق يحيط به على الجانبين
سياج قديم يهتز في يد الهابط الى الشاطئ ، فتردد لحظة ثم بدأ
الهبوط وهو يرسل أنفاسا لاهثة وزفرات محومة فأسرعت في
أثره وأخذت أهبط درجات عديده لانهاية لها وكانت أصوات
أقدامنا تحدث دويا مزعجا في فضاء كثيب عميق مريب لا يستطيع
البصر أن يخترقه ، فجأه توقف أبي عن السير ثم استدار وأطل

الى شيء فوق كتفى وهنا وقفت جامدا لا أتحرك ولا أنطق كأنما
سمرت رجلاى وكأنما انعقد لسانى خوفا وذهولا ذلك اننى
رأيت فى وجهه يايضا شديدا مروعا يثير الخوف فأردت أن
أصيح فاحتبس صوتى وهممت أن أتحرك فخذلتنى ساقاى ثم مرت
برهة مروعة استطعت بعدها أن أطلق صيحة استيقظت معها
على وصول القطار الى محطة (سمالوط) نفس البلدة التى شهدت
مصرع أبى منذ نحو خمسة عشر عاما ، وكان لهذه المصادفة العجيبة
أبلغ الأثر فى نفسى فمددت رأسى من نافذة القطار وأخذت
أجول بعينى فى أنحاء البلدة وكما كانت دهشتى عظيمة حين رأيت
معالمها صورة مطابقة تماما لتلك المعالم التى رأيتها فى منامى ، كانت
بجميع مشاهدتها ومناظرها تمثل ما رأيته فى حلمى فأخذت
أغمغم وأسائل نفسى فى حيرة وذهول
— ترى ما مغزى ذلك ؟

وصممت فى تلك اللحظة أن أغادر القطار للقيام بجولة
فى أنحاء البلدة ولكنى عدت إلى مقعدى مؤثرا أرجاء ذلك إلى
فرصة أخرى بعد استقرارى فى موطن عملى الجديد . ولم استطع
أن أبرئ نفسى من حيرتها وأصرفها عن التفكير فى هذه الرؤيا
العجيبة الا حينما وقف القطار فى محطة نجع حمادى وعندئذ

تنهت لنفسى وحملت أمتعتى وهبطت إلى الأفريز ، وكان الثناء
الخارجى مقفراً من العربات فدرت أنظر هنا وهناك وإذا أنا
أرى عربة يجرها جوادان تصعد الطريق وفيها رجل يلوح بيديه
ناحيتى وبعد لحظات كان الرجل والحوذى واقفين بجوارى ،
وكان يبدو على الرجل أنه أحد موظفى التفاتيش الزراعة وكان
فى نحو الستين من عمره يرتدى الملابس الأفريقية وتبدو على
سيماه مخايل الفطنة والذكاء فلما فرغنا من التعارف استأذنى فى
حمل أمتعتى إلى العربة ثم أمر الحوذى فشرع فى نقلها معه وبعد
قليل كانت العربة تنطلق بنا مسرعة صوب العزبة .

وكان زميلى يدعى « شنودة أفندى » وقد علمت منه
أنه يعمل « باشكاتباً » فى دائرة المرحوم « محمد بك رفاعى »
زوج رسميه هانم وأنه ورث هذه الوظيفة عن آباءه وأجداده
الذين توارثوا العمل فى خدمة عائلة (الرفاعية) منذ قرن من
الزمان ، كما علمت منه أن رسميه هانم قبل زواجها لم تكن على
شئ من الثراء وأن كل ما تملكه الآن من ضياع وأموال آل
الها وإلى ابنتها بعد وفاة زوجها ، وقد ذكر لى أيضاً أن والدها
المرحوم الشيخ عبد الغفار متولى ليس شقيقاً لوالد يونس بك
كما ظننت وإنما أحد أخوته لأبيه .

وكانت العربية حين فرغنا من الحديث في شئونا قد بلغت منتصف الطريق وأخذت تندفع بسرعة في طريق زراعي تحيط به المزارع الشاسعة على الجانبين وبعد دقائق التفت إلى شئودة أفندي وقال :

— اننى أرجو أن تجد في العربية مراتع كافية لنشاطك وهواياتك .
فقلت وأنا أتأمل المزارع المترامية .

— ان كل ما أرجوه أن أكون عضوا عاملا في هذه الضياع الكبيرة .

فقال الرجل - هذا ما سيتيجه لك العمل هنا لأن جميع المزارع في حالة تستحق العناية وتستوجب الإصلاح .

فقلت مستفسرا - وما منعكم من ذلك والثروة عندكم لا حد لها ؟
فأجابني في أسف - أن السبب في ذلك يرجع إلى خلوها من اليد القوية الحازمة ، وربما كان السبب المباشر في تدهورها هو عجزنا عن إيجاد من يحل محل الشيخ (مروان) في شياخة العربية .

فسألته - وأين ذهب الشيخ مروان ؟ -

فأجابني في حسرة

— أنه نزيل الليمان منذ ست سنوات -

— وما الذى قاده إلى هذا المصير ؟ —

— قاده الى ذلك عاملان أولهما اخلاصه المتناهى لأصحاب العزبة
وثانيهما استهتاره الشديد بأرواح الناس —
فقلت فى امتعاض

— إذن فهو أحد سفاحى الصعيد .

فقال — إلى حد ما ، ولقد كانت له سطوة تخيف منه ويعمل لها
فى البلاد المجاورة الف حساب ، على أنه والحق يقال لم يلجأ مرة
إلى الفتك والبطش الا كان ذلك فى سبيل الدفاع عن حقوق
رسميه هانم وحماية مصالحها ، فلما حدث النزاع بينها وبين جارها
« شعلان بك » بسبب الرى لم ير الشيخ مروان مفرا من
اللجوء إلى القوة فبطش بالرجل وأعوانه فى مجزرة بشرية انتهت
بالقبض عليه ومعاقبته بالأشغال الشاقة المؤبدة .

فقلت — هذا شئ يؤسف له ، كم سنة قضاها فى خدمة رسمية هانم ؟
فأجابنى — خمسة عشر عاما أو يزيد —

— خدمة طويلة .. ومن حق رسميه هانم أن تأسف على ما
أصابه وأن كنت أنا شخصا لا آسف على مصير رجل كهذا —

— لقد حزنن الهانم على ما ألم به أشد حزن كما قامت بواجبها
نحو زوجها وابنته الوحيدة وكرست جهودها لسعادتهما فمُنحتهما

أرضا يستغلانها وأنزلتها دارا خاصة بهما في إحدى المزارع
وأشركت ابنة الرجل مع ابنتها في التربية والتعليم وسوت بينهما في
كل شيء حتى أصبحتا رفيقتين صديقتين لا تحس بينهما فرقا ولا
اختلافا.

فقلت وأنا أرقب دور العزبة عن كذب

— يظهر أن رسمية هانم سيدة طيبة القلب .

فقال في حرارة

— أنها سيدة نذلة للغاية ولا شك أنك ستقرعنا بالعمل
عندها.

وكانت العربة في ذلك الوقت قد انعطفت في منحرج ثم سارت
تهدى في بطاء في طريق ملتو تحف به أشجار مرتفعة وبعض
مساكن ريفية مبعثرة هنا وهناك ، ومرت بعد ذلك بسور
مرتفع يحوط دارا مكونة من طابقين فالتفت إلى صاحبي
وقلت وأنا أشير إليها .

— دار رسمية هانم على ما أظن .

فأجابني - كلا ، فلا زال أمامنا لبلوغها بضعة أميال قليلة ، أما

هذه فدار زوجة الشيخ مروان وابنته -

ولم يكذب يفرغ من عبارته حتى بلغ سمعي غناء عذب رخيم لم

استطع معه كتمان دهشتي فقلت وأنا أرهف السمع مأخوذاً
— صوت من هذا ؟ —

فابتسم وقال - آه ، هذا صوت « حورية » ابنة الشيخ مروان -
وفي اللحظة التالية برز شخص من باب الحديقة ، وكانت فتاة
تناهز العشرين من عمرها لها قوام ممشوق وشعر فاحم مسترسل
وعيون واسعة وادعة وجبين وضائيين عن سمرة حمراء جذابة ،
وكانت ترتدي ثوبا أبيض اللون تبدو فيه كطالبات المدارس
ورغم مظهر البساطة الذي كان يشيع في هندامها وزينتها فقد
كانت ملامحها تنم عن براءة ناضرة وملاحة فائقة وجاذبية يزيد
في روعتها مسحة من الحزن تنسكب على وجهها انسكاب الألم
العميق على ملك هبط من السماء .

وعندما وقع بصرها علينا قطعت غناءها فجأة ووقفت تنظر إلينا
حائرة مترددة وهنا رفع شنوده أفندي يده وحياتها قائلاً :

— طاب يومك يا حورية ... هذا شوقي بك المهندس الجديد -
فتطلعت إلى بعينها الواسعتين ثم أطرقت خجلاً وقالت في
صوت موسيقى طروب
— أهلاً وسهلاً -

قالت ذلك ولم تزد ثم استدارت ودلفت إلى الداخل وتوارت

عن الأنظار .

واستأنف شنودة افندى حديثه قائلاً :

— انها فتاة نادرة المثال في ذكائها فما من امتحان أدته الا أحرزت فيه قصب السبق على جميع زميلاتها -

فسألته - أما زالت طالبة ؟ -

— كلا ... لقد انقطعت عن مواصلة الدراسة بعد حصولها على شهادة البكالوريا وكذلك كان الشأن مع (فاتن) كريمة رسميه هانم -

ومضت العربة في طريقها وبصرى متجهة الى باطن نفسى لا الى ماحولى ، كنت أتأمل فى عجب نشوة سعيدة تضطرم فى صدرى وقشعريرة ممتعة تسرى فى كيانى وتوالت على الدقائق وأنا مستسلم لشعور لذيذ غامر حتى قطع على تأملاتى منظر خلاب لى فقد اصطبغ الأفق الغربى بحمرة الشمس الغاربة وغرقت الحقول فى ذوب من اللهب المتوهج توهج النار الحامية وبدأت طلائع الفلاحين تنشد وتغنى وهى عائدة الى ديارها ، وظلت العربة تحتال بين مواكبتهم حتى بدت أمامنا دار فسيحة أنيقة تحيط بها حديقة واسعة نضرة ، وكان ينتظرنا عند بوابتها رهط من العمال والفلاحين والخفراء فلما وقعت أبصارهم علينا أسرعوا إلينا ووجوههم ت برق سرورا وامتدت غابة من الأيدي الى محيية

مصافحة فمبطت وصاغتهم جميعا ثم تبعت شنودة افندى ومضيت الى الداخل . وكانت ربة الدار تنتظرني على عتبة الدرج الداخل وبجوارها ابنتها « فاتن » وكانت السيدة فى نحو الخمسين من عمرها ذات طلعة نبيلة وقوام نحيف ووجه شاحب وكانت سيماؤها تدل على التحفظ ونبل الطباع ورجاحة العقل وكرم النفس أما ابنتها فقد كانت تناهر العشرين لها وجه متورد مكتنز وعينان زرقاوان ضيقتان وقامة قصيرة وجسم بدين يفيض صحة وحيوية . قالت أمها بعد أن حيتنى تحية حارة رقيقة — هذه فاتن .. ابنتى الوحيدة —

فتقدمت الفتاة وصاغتني وهى تتأملنى وتبتسم ابتسامة خاصة وعندما أخذت يدي هزتها هزة من تريد وزن نصيب صاحبها من الرجولة ولم أبال بهذا ولم أكثرت له لعلنى بمبلغ الفضول الذى ينتاب الفتيات اللاتى يعشن فى مثل هذه العزلة ولكنى على أى حال أحسست فى أعماق نفسى بنفور غريب يمازجه شىء غير يسير من الاشتزاز نحو هذه الفتاة المترهلة الجسم المتوثبة الغريزة .

وعندما اتخذنا مجلسنا فى حجرة الاستقبال قالت رسميه هانم

— كيف حال يونس بك ... لقد سمعت عن غرامك بالحياة الريفية وانى لأرجو أن تجد هنا مايسرك —

— شكرا لك وأنى لآمل أن أوفق في خدمتك -

— أن شاء الله ، وأرجو أن تعلم أنه يهمنى جدا أن استمع الى مقترحاتك -

— اننى أضع نفسي وتجاربى تحت تصرفك عن طيب خاطر -

— شكرا ... الواقع اننا فى مسيس الحاجة الى معونتك الفنية ولذلك لقيت فكرة يونس بك منى كل ترحيب ، على أن مهمتك ان تكون شاقة فان معظم العمال هنا على أتم استعداد لتنفيذ تعليماتك فى سبيل النهوض بالعزبة -

— حسن جدا ... هذا من شأنه أن يسهل مهمتى ويعيننى على تحقيق أمنيته -

فقلت - اننى كبيرة الثقة فى نجاحك والآن تستطيع أن ترافق شنوده افندى الى الدار التى خصصت لك وسيكون من دواعى سرورى أن ننتظرك لنتناول العشاء معا .

وهكذا انتهت مقابلتى الأولى لرسميه هانم وخرجت مع شنوده افندى وقصدنا الى الدار الأخرى للاستعداد لوليمة العشاء ، وكانت الدار تقع على بعد ميل من دار صاحبة الضيعة وكانت مكونة من طابقين وتحيط بها حقول مبرامية الاطراف ، وكان كل ما بها من أثاث يبدو جديدا أنيقا لامعا كأنه أحضر

منذ ساعة فأخذت أطوف بهذا الفردوس ومن ورائي شنودة
افندى والخادمة التي خصصت لخدمتي وقضيت في ذلك ساعة ثم
أبدلت ثيابي وخرجت بعد وقت ميمما شطر الدار الأخرى تلبية
لدعوة مضيفتي .

الفصل السادس

وعندما نفذت أنا وشنودة أفندى إلى غرفة الاستقبال كانت « فاتن » جالسه إلى البيان وقد انحنت أمها على مقربة منها وهي تصغى إليها فى شغف فلما شعرنا بمقدمنا كفت الفتاة عن الإيقاع ونهضت مع أمها للترحيب بى .

قلت وأنا آخذ مجلسى بجوار البيان

— من دواعى سرورى أن أجد هنا من يجيد العزف بهذا الاتقان .

فابتسمت أمها دلالة على الرضا وقالت :

— حقا ، أن فاتن موسيقية بارعة .

فقلت - إذن أرجو ألا تبخل علينا ببعض الألحان التى تجيدها -

فقالت أمها - طبعاً ... هيا يا فاتن واسمعيها شيئاً من ألحانك

الجديدة -

فترددت الفتاة وتصنعت الحياء لحظة ثم قامت وأخذت تعزف على

البيان فى براعة أذهلتنى فلما انتهت قلت لها

- أنك مذهشة حقاً يا آنسة ، لعلك تجيدين الغناء أيضاً ؟ -
فأجابتني - كلا ... انما أجد العزف فقط أما الغناء فله بطلته
التي لا تجارى ، وأعنى بها صديقتى حورية -
وقالت أمها - حورية هذه هى ابنة شيخ العزبة السابق وأعتقد
أن صوتها سيعجبك للغاية -

فقلت - ما أبدع هذا ، انه شيء يدعو إلى الاغتراب حقاً -
وفى تلك اللحظة دخل أحد الخدم ودعانا لتناول العشاء فنهضنا
جميعاً وتوجهنا إلى غرفة فسيحة تتوسطها مائدة كبيرة أخذ كل
منا مجلسه حولها ، وكان الطعام فاخراً أعد اعداداً يثير الشهية ،
وكان لا بد أن نتحدث فتحادثنا ورحنا نتكلم عن الحياة فى
القاهرة وفى لندن وفى الريف وأخذنا نمزج الأدب بالسياسة
والنوادير بالأقاصيص .

وعندما استلقيت على فراشى بعد هذه السهرة أحسست
براحة غريبة تسرى فى كيانى ونشوه غامرة تنسكب فى فؤادى
ولم أكد أغمض عيني حتى استغرقت فى نوم عميق لذيد لم
استيقظ منه إلا فى الصباح .



واستقبلت الصباح نشيطاً غاية فى النشاط مبهتجاً أشد

الابتهاج وأخذت انتقل بين أرجاء دارى الأنيقة وأطوف بحجراتها وأفحص محتوياتها واتحدث إلى نفسى بما ينتظرنى فى هذه البيئة الجميلة من سعادة وما سيتاح لى فيها من نعيم ، وجاءتنى الخادمة بطعام الفطور فتناولته مغتبطا مسرورا ثم خرجت وركبت عربة وانطلقت بها إلى المزارع فى جولة تفتيشية ، وكان على لىكى أفعل ذلك أن أسير فى خط دائرى يبدأ من دارى وينتهى عند مشتل كبير فى الطرف المقابل من العزبة ، فضيت فى طريقى وألهبت ظهر الجواد فأخترق الوادى ومضى ينهب فى الأرض نهبا ، ورآنى الفلاحون فى حقولهم فدعاهم الشعور بوجودى إلى التوقف لتحتى فشددت عنان الجواد وأخذت أسير بين جموعهم على مهل أحادث هذا مرة وذلك أخرى وقضيت ساعات أجول هنا وهناك استحثت الفلاحين واتبسط معهم والقى اليهم بتعليماتى وارشاداتى وأتلقى شكواهم وعند الظهر تناولت الطعام معهم فى مساكنهم ثم استأنفت الرحلة قرب الأصيل فى الطريق المعتاد ، ومضيت فى هذا الطريق الى أن بلغت منعطفاً فأبطأت قليلا ومضى الجواد يسير خبيا ، وكان هذا المنعطف هو نفس المنعطف الذى قابلت فيه حوريه أمس ولكنه بدا لى هذه المرة أكثر بهاء وجمالا

وبيئنا أنا أجول بعيني هنا وهناك إذ حمل إلى النسيم فجأة صوت
غناء يـمـوج رخـيـما عذبا في الهواء ، فدرت أنظر حولى بلهفة
وحينئذ وقع بصرى على حورية بقامتها الطويلة الرائعة بين
الأشجار ، وكانت فى ذلك الوقت تحاول اجتياز جسر يؤدى إلى
باب دارها وفى اللحظة التالية لمحتنى وأنا أرقبها عن كـشـب
فانقطعت عن الغناء بغتة وحاولت أن تسرع إلى الباب فأسرعت
واعترضت طريقها وقلت وأنا أتأملها فى نشوة سعيدة كأننى
أتأمل أثرا فنيا خالدا

- لماذا تتسللين هكذا يا حورية ؟
وسكت لحظة ثم قلت - ألا تعرفيننى ؟ -
فأسبلت جفونها واصطبغ وجهها بلون الدم وتاعثمت قائلة
— بلى ، ألسـت المهندس الجديد ؟ -
فقلت - نعم ... أنا هو ، أتدرين يا حورية أن لك صوتا نادرا -
فقلت بصوت ناعم وهى مطرقة أرضا كالطائر الوديع - أحقا
تقول ؟ -
فقلت - بكل تأكيد ، ان لصوتك مميزات تعبر عن روح خاصة
وفى اعتقادى أنه لا ينقصه شىء كثير ليكون آية خالدة -
فابتسمت ابتسامة حلوة ورنـت الى رنوه جذابة وقالت :

— أراك تبالغ -

فقلت - أنك لا تدرين مبلغ المسمى بأصول الموسيقى ، وأننى لا أبالغ إذا قلت أن صوتك فى حلاوته ورخامته يبرز جميع الأصوات التى سمعتها فى حياتى -

قلت - اذن فانت موسيقار -

فقلت - موسيقار هاو ، وأن روحى لتؤثر الموسيقى على غيرها من سائر الهوايات التى أمارسها -

فسألتنى - وأى نوع آخر من الهوايات تتعشقه ؟ -

قلت - كتابة القصص -

قلت - أحقا ؟ كم أهوى قراءة القصص -

فقلت - اذن أرجو أن تسمحى لى باهدائك مجموعة منها .

— اننى أقبل ذلك بكل سرور -

قلت ذلك ثم حيتنى وابتعدت عنى وتوارت خلف السياج .

وظللت فى مكانى ذاهلا وقد ملكت على نشوتى بحسنى كل

حواسى ، وأخيرا تنبهت لفسى فرفعت رأسى ورمقت نوافذ

دارها بنظرة طويلة ثم انطلقت صوب دارى .

وفى تلك الليلة لم يزر النوم جفنى فقد كنت أحس

ينبوعا جياشا من الحياة يتفجر فى دمائى ، وبسمة حلوة من

الآمل تتلألأ كالصبح المضيء في خيالي ، وقضيت سواد ليلي نهبا
لما يدور في رأسي من أمانى وما يتجاوب في أعماق قلبي من نغم
وما يسرى في كياني من شوق ووله وهيام ، حتى إذا كان الفجر
قفزت من فراشي وأمسكت بقلبي ورحت أكتب .. رحلت
أسطر قصتي المعروفة « النظرة الأولى » .

وفي الصباح اذ انطلقت الى عملي لم أحس هذا الضيق
الذي كان يخيم عادة على صدرى وإنما نعمت بهذا الشيء الذي
يسمونه السعادة الحقة ، هذه النعمة الكبرى التي لم أحس لها من
قبل وجود في حياتي ، ولم يكن لها مذاق في فمي ، وانفقت
بين العمال والمزارعين وجه النهار وأنا ممتلىء حيوية ونشاطا
وعندما أوشكت على الفراغ من عملي جاءني رسول من قبل
رسميه هانم لدعوتي لتناول العشاء معها في دارها وكان ذلك قرب
المساء فأسرعت وأنهيت عملي وأخذت طريق في الاتجاه المؤدى
الى دار حورية وعندما اجتزت المنعطف ارتفع بصرى برغمي
الى احدى النوافذ وما كدت ألمحها وهي منحنية على النافذة حتى
وجف قلبي وتعلقت عيناي بها كأنما تبتغيان أن تلتهاها التهاما ،
وكانت في هذه المرة تبدو أكثر اهتماما بزينتها وعناية بهندامها
وشعرها ، وعندما رفعت يدي لها بالتحية قالت بصوتها العذب

الحنون

- مساء الخير ... هل أحضرت القصص ؟ -

فقلت - كلا ... لقد نسيت فهل يروقك أن أحضرها غداً ؟ -

فقلت - اننى مدعوة لتناول العشاء الليلة عند فتن و بوسعك

أن تجلبها معك هناك اذا لم يكن لديك مانع -

فقلت - بكل سرور -

- الى اللقاء -

وأسرعت وأنتهى الوداع بهذه الكلمة ثم اختفت تاركة وراءها

أثرا عميقا نحتته في قلبي نحتا .

الفصل السابع

وعندما وصلت دار رسميه هانم في المساء كان كل شيء في الحديقة والدار يوحى بالفرح والنشوة ، وما كاد خبر وصولي يبلغ مسامع أهل الدار حتى خف الجميع لاستقبالى والاحتفاء بى ، وكانت رسميه هانم وابنتها أول من تقدم لتحتينى عند مدخل القاعة الكبرى وعندما قادتني الأم الى غرفة الاستقبال ابتسمت وقالت - هل تعرف يا أستاذ شوقى أننى أعددت لك مفاجأة سارة -

فقلت فى ابتهاج

- الواقع يا رسميه هانم أننى أحس أن حياتى هنا ستكون سلسلة من المفاجئات السعيدة -

فقلت - هذا ما أتوقعه ، اذ لاشيء ينقصنا جميعا هنا لكى نكون سعداء وأرجو أن يكون هذا هو شعورك دائما -

فقلت - اننى لا أبالغ اذا قلت اننى عاجز عن وصف شعورى أمام هذه السعادة التى غمرتني وطغت على -

وما كدت أتم عبارتي حتى ظهرت على عتبة غرفة الاستقبال

أمرأة متوسطة القامة جميلة المحيا في نحو الأربعين من عمرها
وهنا تحولت رسميه هانم وقالت تقدمها الى
— السيدة رتيبة .. زوجة الشيخ مروان —

ولم تسكد المرأة تتحرك لتحتي حتى وقع بصرى على حورية
بحوار مصراع الباب وحينئذ قالت رسميه هانم
— هذه هي المفاجأة ... تعالى يا حورية لأقدمك للأستاذ شوقي
المهندس الجديد —

فاقتربت الفتاة وهي تبسم في عذوبة وخجل ورقة ثم صاحفتي
بصورة استشعرت منها رغبته في عدم البوح بما دار بيننا ، فقلت
وقد ازدادت ضربات قلبي سرعة وعنفا
— مرحبا بك يا آنسة ... لقد كنت شديد الرغبة في التعرف
إليك لما سمعته عن مواهبك —

خففت بصرها وقالت :

— شكراً ... منذ الذي حدثك عن ذلك ؟ —

فقالت فاتن وهي تلتصق بها في مودة ظاهرة

— أنا الذي حدثته عنك وكذلك أمي ولا شك أننا لم نذكر
غير الواقع .

وقادتنا ربة الدار الى غرفة الاستقبال وهناك مكثنا وقتا تجاذبنا فيه أطراف الحديث في موضوعات شتى الى أن دنت ساعة العشاء وحينئذ قمنا والتفنا حول المائدة وأخذنا نتناول مالد وطاب من شهى الطعام ولما فرغنا من ذلك انتقلنا الى شرفة فسيحة تطل على حديقة الدار الفيحاء وأخذنا في حديث طويل عن الموسيقى والأدب والشعر والرسم والغناء وانتهزت الفرصة فقدمت لفاتن وحورية القصص التي كنت قد أحضرتها معي وطلبت منها قراءتها في أوقات الفراغ . فابتهجتا لذلك أيما ابتهاج واشتركتا معنا في الحديث فأكسبناه بهجة ومرحا واشراقا، وكانت الليلة نموذجاً رائعاً لليلة الريف المصرى الجميل، فقد أطل القمر من السماء وأخذ يتصاعد في الأفق متوهج اللون وسجا الليل لا يتخلل سجوه غير حفيف النسيم وهو يداعب الزهر والشجر وتردد أصوات جميلة من حناجر الطيور الراقدة في أعشاشها، وبعد لحظات طلبت رسميه هانم من حورية أن تغنى وما أسرع ما توجهت فاتن الى إحدى الغرف وعادت بعد لحظة ويدها كمان ثم جلست بجوار صديقتها وبدأت تمدّها بالعون من أنغام كمانها، وجأة قطع السكون غناء رخم تابعتة قلوبنا فكادت تنقطع عن الحفوق كلما رق، وتث من الصدور كلما

علا واشتد ، وظلت حورية تشدو بصوتها الشجي ونحن نترنخ
من حلاوة مانسمع وجمال مانشهد الى أن بلغت حدا استسلمنا
معه الى نشوة غامرة وارتفعنا به الى عالم مسحور . وما أيقنت
حورية أنها اشبعت كل حاسة من حواسنا بسحر غنائها
وأسكرت قلوبنا بعذب ألحانها حتى تخافتت بصوتها قليلا قليلا
حتى سكنت ، هنالك امتدت بيننا لحظة صمت قصيرة من أثر
ماعرانا من دهشة واعمجاب وذهول وما كادت تنحسر هذه
الدهشة حتى ألهبنا الأكف بالتصفيق وكنت أشد الجميع نشوة
وطربا فقلت لها وأنا أشد على يدها

— ما كنت أحسبك بارعة الى هذا الحد يا حورية -

وهنا قالت فاتن وهي ترنو اليها باعجاب

— أتريد أن تستمتع حقا بغنائها ؟ -

فقلت وأنا مستغرق في حلم لذيذ

— طبعا ... طبعا -

فقالت وهي تبتسم لصديقتها

— اذن عليك أن تترقب الليالى القمرية على ضفاف النيل -

فقلت في جدل - أحقا ؟ لا شك أن ذلك يضاعف من جمال

صوتها وروعته -

فقلت فائن - بكل تأكيد فصولها في هذه الحالة يعملو على كل وصف -

وهنا قالت رسمية هاتم

- إذن نرجو الا تفوتكم هذه الفرصة غدا -

فقلت ابنتها - هذا ما ساعد له العدة من الصباح -

وسكنت لحظة ثم استطردت تقول ضاحكة

- ولكن ماذا سنتقاضاه منكم في مقابل هذه المتعات ؟ -

فضحكنا وضحكت أمها وقالت

- أطلبي ما شئت يافائن ولكن إياك أن تغالى -

فضحكت فائن وأجابتها

- لن نغالى ، كل ما نطلبه بضعة دروس خصوصيه يعطيها لنا

الأستاذ شوقي باعتباره خبيراً في صناعة المزيات والشراب

والألبان -

فابتسمت أمها وتطلعت إلى وقالت :

- ما قولك في هذا ؟ -

وكنيت في تلك اللحظة واقعاً تحت تأثير قشعريرة ممتعة فتنهت إلى

نفسى وقلت

- أننى أرحب بذلك وأقبله من صميم قواذى -

فقلت فاتن - حسنا ... أذن نبدأ من الغد ... أليس كذلك
يا حورية -

فأجابتها - كما تشائين يا فاتن -

وعندما أوصلت حورية وأمها في نهاية السهرة إلى
دارهما لم أجد في نفسي القدرة على الكلام فلما مدت يدها لمصاحتي
ضغطت عليها ثم لفظت ببضع كلمات لاهثة وودعتها وانصرفت
ومن ذلك اليوم أصبحت « حورية » شغلى الشاغل
فكنت أمر على منزلها أثناء خروجي وعودتي وما أكثر ما
كنت أخرج وأعود ، وكانت الدروس الخصوصية فرصة
طيبة لي ولها فاشتد اتصالي بها وتعددت مقابلاتي لها وكثر
انفرادي بها دون أن يتعرض أمرنا لريبة أو يدعوا إلى شبهة
أو يثير في نفوس من حولنا وخاصة فاتن أى عاطفة سوء ،
واشتد بمرور الزمن إعجابي بها وحبى لها فقد كانت الفتاة مثالا
للطيبة والنبيل والحنان ، وكان قلبها عامرا بالطهر والعفة والنقاء ،
وكان جمالها من ذلك النوع الذى يوحى بالعبادة أكثر مما يوحى
بالحب ، ولقد حاولت أكثر من مرة أن أصارحها بهواى
وبرغبتى فى الزواج بعد أن استيقنت أنها تلقى حبي بحب مثله ،
ولكن عاملين اثنين كانا دائما يردانى عن هذا الاعتراف

ويصدانى عن تلك المصارحة صدا ، فأما أحد هذين العاملين فكان وجود فائق بيننا ، ذلك أن عاصفة الفتاة نحوى ما لبثت أن تحوالت من أعجاب بمواهبى إلى إعجاب بشخصى فكانت تتعمد لقائى مصباحة مسيه وكانت تزورنى على العلات فى مقر عملى إذا ابطأت فى زيارتها فى دارها ، وكانت حوريه ترى ذلك فتلقاه لقاء حسنا نقيا ، وتجدد فى الأغضاء عنه والصبر عليه وفاء لصديقتها واشباعا لعاطفة الحب التى تسكنها لها . هذا أحد العاملين وأما العامل الآخر فكان ترددى الذى ولده فى نفسى المصير الذى انتهى اليه أبوها واشتمزازى من سيرته بين الناس ، لذلك ترددت كثيرا فى الأقدام على هذه المصارحة ولم أر بدا آخر الأمر من السكتان إلى أن يجدد ما يزيح ما أمامى من عقبات وما يمحو ما نقش فى قلبى نحو أبيها من اشتمزاز ونفور .

ومرت على ذلك عشرة شهور سارت فيها الأيام فى طريقها على هذا المنوال الى أن جاء يوم مرضت فيه رسمية هانم مرضا عضالا استدعى ضرورة سفرها إلى القاهرة لاستشارة أحد الاخصائيين ، وكان الاتفاق قد تم على أن تنزل ضيفة على يونس بك طول مدة العلاج فلما جاءها كتابه الذى أبدى فيه ترحيبه بها أعدت عدتها وسافرت برفقة فائق وشنودة أفندى .

الفصل الثامن

خلا الجولى ولحورية فبدأ حبي لها يثقل على وأخذ
ولعى بها يحيط بي ويغمرني ولكنى برغم ذلك تماكنت نفسى
فلم أعلن لها حبي ولم أبح لها برغبتى الجياشة فى الزواج منها ،
واستمر الحال على ذلك شهرا حتى كان هذا اليوم الذى أقبل
فيه أحد الخفراء يحمل لى رسالة من رسميه هانم تنبئنى بالخبر
المذهل... خبر خطبة فاتن إلى توفيق وقرب عودتهم إلى العزبة ،
هنالك أحسست هذا التردد بين الابتهاج والانقباض وبين
الفرح والحزن وبين الرضى والسخط ، ولعلى لو سئلت يومئذ
عن سر هذه العواطف المتباينة التى ازدحمت بها نفسى لما عرفت
بم أجيب ، أكان ذلك لكرهى الشديدة لتوفيق أم كان
اشفاقا على فاتن أم كان لشعورى بزوال ما أمامى من عقبات
وقرب فوزى بمن أحب .

وعندما لقيت « حورية » بعد ساعة وأعلنت اليها النبأ
اتصلت بيننا لحظة صامتة لم نعرف فيها كيف نقول ثم قطعت

حبل الصمت وقلت :

— اننى أعرف الخطيب تمام المعرفة وكل ما أستطيع أن أفعله هو أن ابتهل إلى الله أن يكتب لفاتن التوفيق معه -

فسألتنى - وهل يونس بك على علم بأمره -

قلت - نعم .. ولكنى يثق به مع ذلك ثقة لا حد لها -

— إذن فأنت تتوقع أن تشقى فاتن معه -

— لا أستطيع أن أجزم بذلك ، فقد تستطيع بجهودها أن تقومه وتبدله خلقا آخر -

— الا ترى أن أكتب اليها لأحذرها -

— كلا... لا تفعل... من يدري .. ربما كان فى ذلك سعادتها -

وبعد هذه المقابلة تطور حبي لحرورية وزاد عنفاً وقوة

وبدأت أشعر بأننى أعيش فى دنيا جديدة من خلق عينيها ،

وأخذت الغيوم التى ولدتها سيرة أبيها فى قلبى تتبدد تحت أشعة

نظراتها الفاتنة وبسماتها المتألقة ، وابتدأت أفكر جدياً فى ربط

مصري بمصريها ، وقضيت ليال أفكر وأفكر إلى أن اقتنعت

بأنها المخلوق الوحيد الذى يستطيع أن يمنحنى السعادة ويعلمنى

جمال الحياة ونفاسها .

و ذات يوم عند الأصيل صحبتنى فى نزهة علم الشاطئ

وكان الجو صحوا والنسيم يهب عليلا والشمس تبعثر أشعتها
الذهبية على الحقول كثمات رفيقة حانية وأخذنا نتمعن في السير
جنباً إلى جنب كروح وحاديه وساد صمت وسكون كنت في
خلالها أرقب انوثتها الكاملة المستوفزة وهي تصفر من جسمها
وروحها وقطعت الصمت بعد لحظة قائلا :

— والآن... أظني أستطيع أن أفاتحك يا حورية في أمر هام
يمس مستقبلنا معا.... أنني أود من صميم قلبي أن تكوني
زوجة لي -

فتأملت عيناها وارتسمت على وجهها مظاهر الفرح والحتل
والدهشة ثم أطرقت لحظة مفكرة وحين رفعت رأسها كانت
ملاحها تتم عن ألم وعذاب وحزن دفين وخيل الى اني أرى
الدموع في عينيها فهالني الأمر وسألتها
— ماذا دهاك ! أبحزنك ذلك يا حورية ؟

فقال في صوت متقطع خافت

— كلا .. فما أسعدني بذلك .. ولكن أموقن أنت أن زواجك
منى سيسعدك ؟ -

فدهشت وقلت - بكل تأكيد يا عزيزتي ، هل تشكين في حبي ؟ -
فقال - ما شككت في ذلك قط ، ولكن المسألة ليست

مسألة الحب وحده وإنما ... -

وسكنت فحملت في وجهها استقرىء معارفها وقلت

- ماذا تعنين ؟

فقلت في أسي - أعنى اننى لست جديرة بك -

فقلت محتجا - كيف يخطر لك هذا الكلام ؟ -

فقلت - لا تخادع نفسك يا أستاذ شوقي ، اننى أدرك نفسييتك

تمام الادراك -

فقلت - كيف ؟ أفصحى -

فقلت والدموع تسيل على خديها

- أننى لا ألقى بك لسبب أنت تعلمه حق العلم -

فقلت - الحق أننى لا أفهم ... ما هو ؟ -

فقلت - أنه نفس السبب الذى أقض مضجعك وحملك على

التردد فى هذه المصارحة طول هذه المدة -

فسألها - ما ذا تقصدين ؟ -

فقلت وهى تنظر إلى بعيد

- أبى ... أننى أعلم مدى ما تثيره سيرته فى نفسك من امتعاض

وتفور -

فقلت - أنا لا أنكر ذلك ، ولكن ما ذنبك أنت يا حورية ؟ -

فقلت - أنه أبى ومهما اختلف الناس فى الحكم على تصرفاته
فأنى لا زلت أحبه وأجله وأقدس أبوته -

فقلت - هذا ما لا تلامين عليه ، ولكن يجب أن تعلنى بأننى وأن
كنت استنكر الأثم والاعترام ولى فى ذلك مبادئ ومعتقداتى
الا أننى لا أجد فى ذلك ما يبرر حرمانى من السعادة التى
ستنجم من اقترانى بك -

قالت - إذا كنت ترى ذلك وإذا كنت تعتقد أن اقترانى بك
مع هذا لن يؤدى إلى ... - وسكتت للمرة الثانية دون أن تتم
فقلت وأنا أضغط على يدها فى حرارة

- أنا واثق من ذلك يا حورية تمام الثقة .. والآن خبرينى، هل
توافقين؟ -

فاحمر وجهها وبرقت عيناها سرورا وقالت
- اننى اوافق ... اوافق من أعماق قلبى -

فقلت فى فرح غامر

- إذن أفتح أمك -

فقلت فى جذل

- يحسن أولا أن تكتب الى رسمية هانم -

- حسنا ... سأكتب لها على الفور -

ولا أذكر شيئاً مما حدث ومما قيل بعد ذلك ولكن
الشيء الذى أذكره هو أننى بعد أن ودعتها سرت أترنخ فى الظلام
بين الحقول وأنا أرهف السمع الى صوت الأمانى وهى تعربد
فى صدرى ، وأصغى فى نشوة الى اصداء الكون من حولى وهى
تتجاوب فى لحن عذب راقص متصل ، وحين استلقيت على
فراشى وبدأت استسلم للنعاس كان آخر شيء وسوس فى ضميرى
وهتفت به شفتاى

« اننى أسعد مخلوق فى الحياة »

° ° °

وفى صباح اليوم التالى كتبت الى كل من رسميه هانم
ويونس بك رسالة رقيقة وفى نهاية الأسبوع جاءتنى رسالتان ،
أما الأولى فكانت من رسميه هانم وهذه هى محتوياتها :
عزيزى الأستاذ شوق

أكتب اليك هذه الكلمات وكلى أمل فى أن تكون
وجميع من بالعزبة بصحة وعافية ، أما صحتى فلا بأس بها بفضل
عناية الأطباء ورعاية والدتك ، وأما فيما يتعلق بموضوعك
فافيدك بأننى أرحب بهذا الزواج وأوافق عليه من صميم قواذى
لما أعرفه عن حورية وعن خصالها وسجاياها ولكنى أخبرك

بيني وبينك أن رغبتك لم تصادف قبولا عند يونس بك ولم أعرف الآن وجهة نظره في هذا الرفض وما أخفى عليك اننى قد أنكرت ذلك لأننى أدرى الناس بما عليه حورية من عالى الصفات ورفيع الخصال ، على أننى لم استطع أن أبادى والديك برأى ، وما أرى الا أن تنظر فى هذا الأمر وحده لأنه يعنك أكثر مما يعنى غيرك ويمسك أكثر مما يمسه جميعا . هذا وقد تمتد اقامتى هنا شهرا آخر تحقيقا لرغبة فاتن ، وتحيتى اليك والى حورية والجميع ؟

رسمية

أما رسالة يونس بك فقد كانت على النحو الآتى : -

ولدى شوقى

لقد دهشت من خطابك لأننى أرى أن مسألة زواجك لا ينبغى أن تعد على هذا الأسلوب السريع المرتجل ، ولا أحب أن تفهم أننى أبغى الاستئثار بهذا الأمر دونك . كلا . ولكنى لا أحب لك أن تتورط فى أمر مستقبلك هذا التوريط ، لأن هناك أشياء كثيرة يجب أن تفكر فيها قبل الاقدام على هذا الزواج ، وأول هذه الأشياء أن هذه الفتاة لاتليق بك ولا بأسرتك بأى حال من الأحوال وثانى هذه الأشياء أن فتاة

كـهـذه لا يمكن أن تتيح اشـاب مثقف مثلك السعادة التي ينشدها،
ولا أـكـتمـك أن هـذه الرغـبة قد أفـزعـتنا لاسيـما وقد جـاءت في
وقـت كـنا نفـكر فيـه تفـكيرا جـديـا في خـطـبتك لفتـاة أيسـر ما يـقال
فيها أنها تنتمى الى أسرة عريقة ممتازة، وسأحدثك بتفاصيل
هذه الخطبة عند حضورنا بصحبة رسمية هانم في منتصف الشهر
القادم، ولك خالص تحياتي وأزكى سلامي ؟

يونس

ووقفت لحظة أقرض على أسناني في غضب وحنق ثم
أمسكت بالخطاب ومزقته - اربا اربا وكان ردى المباشر على
محتويات هذه الرسالة أنى أسرعـت الى دار « حورية » وكانت
في ذلك الوقت جالسة مع أمها في إحدى الغرف فـشـخصت اليها
وأعلنتها برغبتى وتصميمى على التعجيل بالزواج .

قالت أمها وهى لاتـكـتم فرحها - ولكن ألا تظن أنه يحمل بنا
أن ننتظر ريثما تعود رسمية هانم -

فقلت - لقد أبدت موافقتها وبذلك لم يعد هناك ما يدعو الى
الانتظار -

فقلت - الأمر أمرك يا أستاذ شوقى -

فقلت - اننى مصمم على أن يتم كل شىء فى نهاية هذا الأسبوع

فهل توافقان؟-

فتورد وجه حورية وتألق خجلا وفرحاً ثم أطرقت ولم تتكلم
أما أمها فتطلعت الى وقالت فى حبور - اننا رهن مشيئتك -

وفى اليوم المحدد أتمنا كل شىء فى حفل هادىء جميل ،
وانتقلت حورية عقب ذلك الى دارى ، وكنت قد كتبت الى
يونس بك وأمى ورسمية هانم بما استقر عزمى عليه مؤكدا لهم
أنه يسرنى أن أراهم فى حفلة الزواج اذا راقهم الحضور ، فأما
رسمية هانم فقد أبرقت الى مهنئة ، وأما يونس بك فقد أمسك
عن الرد ، وأما أمى فردت رداً مقتضيا لامتنى فيه على تسرعى
الممقوت ولكنها مع ذلك تمنى لى السعادة ، ولم أحزن لذلك
فقد كان أمره تافهاً بالقياس الى فرحى بحورية ولذة فوزى بها
وحرارة حبى لها ، وسارت الأيام فى طريقها والعلاقة بينى وبين
زوجتى تزداد توثقا وحباً وتعلقاً وكفاً ، وكان كل يوم يمر
يزيدنى شغفاً بها وهياماً وكانت كل لحظة تنقضى تمدنى من
الاحاسيس ما يملأ سنوات من حياة غيرى ولا غرو فقد كانت
حورية مثال الزوجة المخلصة المحبة الوفية ، والرفيق الودود
الأنيس ، كانت تقرأ رغباتى من عيني وتعرف كل حاجاتى فتوفرها لى
دون أن أشعر ، وكانت لاتسكتنى فى ادارة البيت بالاشراف

والارشاد ، بل كانت تشرف بنفسها على كل أموره صغيرها وكبيرها ، وكانت رغم مشاغلها تجد وقتا لتشاركني هواياتي ومتعاتي الفنية من أدب وقصص ورسم وموسيقى ، ورغم أنها لم تكن ندالي في ثقافتها الا أنها كانت على المام تام بكل ما يتيسر لواحدة من مستواها في العلوم .

وكانت في أول الأمر لا تعرف من الغناء سوى محاكاة الأنسة أم كلثوم وغيرها من شهيرات المطربات ولكنها ما لبثت أن نحت في الغناء نحوا جديدا ، وما لبث صوتها أن أصبح شيئا آخر غير ذلك الصوت الباكي الحزين . وأخذت بمرور الزمن أتلس فيها تغيرا ورقيا ولم يكده يكتمل الشهر حتى كانت قد بلغت في ذلك شأوا بعيدا تحسد عليه وفي منتصف الشهر التالي عادت رسمية هانم وفاتن وحدهما مع شنودة افندى ، وكان لمحبيها رنة فرح وسرور في نفوسنا ونفوس أهل العزبة جميعا .

وكانت فاتن أشدنا فرحا وطربا وابتهاجا ، فقد كان فرحها بتوفيق وحبها له واعجابها به لا يعرف حدا ، كانت مفتونة به مشغولة دائما بأمره مصروقة في كل أوقاتها الى صورته ، وكان تغيرها هذا موضوع الحديث بيني وبين حورية خلال الأيام التي انقضت بعد وصولها مع أمها .

قلت لـحورية يوما - يالها من فتاة غريبة .. انها تخلق في جو ما أبعد عن دنيا الواقع -

فقالت - حقا ، لقد ملك عليها خطيبها قلبها وعقلها وعواطفها وأنساها كل شيء حتى نفسها ، ولكن خبرني أليس في الامكان أن يكون لهذا الحب أثره في تطهير نفس الأستاذ توفيق من الفساد والاستهتار والمجون ؟ -

فقلت - أنا معك في أن الحب خليف أن يزكى القلوب ويطهر النفوس ولكن من قال لك أنه يحبها ويبادلها عواطفها ، لقد عشت معه وأقنا معا الأيام والليالي فلم أشهد سوى غرائزه البغيضة وطباعه الشاذة واخلاقه الوضيعة الفاسدة -

فقالت - لشد ما تخدعنا الظواهر ، ان منظره في صورته التي عرضتها فأن على لائتم الا عن براءة وطهر ونقاء -

فقلت - لست أنكر أنه يتميز بمظهر فأن يخلب الألباب ولعلك لم تنس أنه أختير يوما ملكا للجمال في احدى حفلات القاهرة منذ ستة عشر عاما -

فتمتتم تقول - آه ... اذكر أنك حدثتني عن ذلك -

فسكت لحظة ثم قلت - اسمعي يا حورية .. أن ما كنا نخشاه قد وقع وأصبح أمرا لا مفر من التسليم به ، وأظن أنه يجدر بنا أن

نكتم هو اجسنا عن فاتن لأنها لن تصدق واذا صدقت فقد تؤذيها
هذه المصارحة وتهدم آمالها ، هذا من جهة ومن جهة أخرى
فاتن أرى أن نحتفظ بمظاهر الود بيننا وبينه عند حضوره وأن
نحرص على أن يقوم التفاهم بيننا وبينه طول اقامته هنا بعد
الزفاف -

وعندما عدت الى دارى فى أصيل ذلك اليوم كانت فاتن
تجلس مع حورية فى غرفة الاستقبال ، وكاتنا فى ذلك الوقت
تداولان صورة توفيق وتأملانها فى شغف ولهفة وإعجاب فلما
أحسنا بمقدمى نهضتا واقفتين ودنت منى فاتن وناولتنى الصورة
قائلة وعيناها تتألقان فرحا وزهوا وسرورا - انظر ... لقد
وردت الى اليوم فى رسالة .. انها أحدث صورة لتوتو ،
ما قولك فيها ؟ -

فقلت وأنا أتملأ امتعاضا - حقا ، أنها صورة رائعة -

وكم كانت دهشتى بالغة عندما اختطفت الصورة من يدي لتضع
عليها قبلة حارة ثم تدفنها فى صدرها فى وله زائد ووجد شديد ،
ورغم ما كان فى ذلك الموقف النبى من موجبات الخجل فانها
استأنفت الكلام فى جرأة مموجة - انه أجمل شاب فى القاهرة ،

ولذلك فليس في نيتي أن أقدمه لصديقاتي حتى لا أنقص عليهن حياتهن ، ولكني سأستثنى حورية من غير شك -

قالت ذلك وهي تهتز وتترنح طرباً أما أنا فقد خيل إلى أن قلبي قد هوى إلى قدمي من فرط الأسى والحزن على هذا التحول الغريب الشاذ الذي طرأ على هذه الفتاة الساذجة ، ومن ذلك اليوم سقطت فاتن من نظري وتلاشى تقديري لها كفتاة محترمة .

وعندما همت بالانصراف التفتت إلى حورية وقالت - إذا حضرت الليلة فسأحدثك طويلاً عما كنا نفعله في صالات القاهرة -

وعندما غادرتنا قلت لحورية - ما أشد ما طرأ عليها من تغير ... لقد جعل منها الشيطان مخلوقاً آخر -

فقالت - حقاً ، ان من يراها لا يظنها فاتن القديمة -

فقلت - أن مثل هذا التحول لا يحمل في طياته سوى الشر والفساد ، ألم تنبئك بميعاد الزفاف ؟ -

فأجابتنى - لقد قالت لي بأنه سيحضر في نهاية هذا الشهر ، وأن النية قد انعقدت على اتمام الزواج في منتصف الشهر القادم -

وفى المساء أوصلت حورية الى دار فأتى بناء على رغبةها
ثم عدت وحدى وأنا أتمتم باللعة على توفيق وعلى المصادفات
السيئة التى أوقعت فأتى فى حبائمه ودفعت به مرة أخرى فى
طريقى.



الفصل التاسع

وحال اليوم الموعد .. يوم وصول توفيق ، وكان ذلك فى يوم جميل من أيام شتاء الصعيد البديع ، وكنت قد قضيت وجه النهار فى الحقول فلما عدت الى دارى عند الاصيل لم أجد حورية وانما وجدت من انبأنى بخبر وصول توفيق الى دار رسمية هانم منذ ساعات وذهاب حورية لتحيته تلبية لدعوة فائق ، قدخلت دارى واغتسلت وأبدلت ثيابى ثم خرجت ويممت شطر الدار الأخرى ، وعندما وصلت توجهت من فورى الى غرفة الاستقبال وهناك وجدت (توفيق) بوجهه المشرق المتصانق ومظهره الأنيق الذى لم يعتوره تغير ، جالسا يضحك ملء شديه بين حورية وفائق بينما كانت رسمية هانم مضطجعة على أريكة بالقرب منهم ، فلما ظهرت على عتبة الغرفة نهضوا جميعا وأسرع توفيق واحتضنى بين ذراعيه وأخذ يقبلنى ويضمنى الى صدره فى حرارة أذهلتنى ، وعندما أخذنا مجلسنا قال

— كيف ألومك على تصرفاتك يا شوقى ، اننى أعجب كيف وجدت القدرة على مقاطعتنا طول هذه المدة ؟ —

فقلت وأنا أرقب في غيظ واشتمزاز وجهه المتألق ذا النظرة المتجددة وأصابه الرخصة البضة المرصعة بالجواهر - ليس الذنب ذنبي وإنما ذنب ... -

فقطاعني ضاحكا - دعك من حديث الذنوب فاني أعرف القصة من بدايتها الى نهايتها . ولا أكتمك أنني بعد أن رأيت حورية أيقنت بأنك غير ملوم -

ورمق حورية بنظرة ملتهبة ثم ضحك وضحك الجميع أما أنا فقد وجمت ولزمت الصمت واستطرد هو يقول - الواقع أنه لم يخطر لنا في مصر على بال أن حورية على هذه الصورة من الكمال والتهديب ، ولو قد رآها أحد منا لما حدث ما حدث -

فأشرقت ملامح رسمية هانم وقالت - أراك قد وثقت أخير بصحة كلامي -

فقال - حقا ، ولو درى يونس بك بالحقيقة لاغبط أيما اغبطا -

وهنا رأيت الامناس لي من الكلام كما أحول مجرى الحديث الى ناحية أخرى فقلت

- وكيف حال يونس بك ؟ لقد سمعت أنه أحيل الى المعاش -

فقال - هذا صحيح ، ولكنه لا يريد أن يخلد الى الراحة أبداً

ولذلك فقد سعى حتى التحق باحدى الشركات الكبيرة نظير
مكافأة ضخمة -

ونهنأنا بعد ساعة لتناول طعام العشاء وبعد أن فرغنا
منه انتقلنا الى الشرفة وأخذنا نتجاذب أطراف الحديث وبعد
وقت طلبت رسمية هانم من حورية أن تغنى لهم اغانىها ،
فتمنعت وبدأ عليها التردد والحجل وهنا نهض توفيق واقترب
منها ثم أمسك بيدها فى غير كلفة وأرغمها على الوقوف بجوار
فاتن وطلب منها أن تغنى له أغنية من أغانى أم كلثوم ، فازداد
خجلها واشتد ارتباكها وحيرتها وأمام هذا لم أر بدا من حسم
الموقف فاقتربت ووقفت بينها وبينه وطلبت منها تحقيق رجائه .
وما خيم السكون على المكان حتى انطلق صوت حورية بغناء
شجى عذب رقصت على وقعه القلوب وثملت من عذوبته
الحواس ، وما كادت تنتهى من غنائها حتى قفز توفيق الى ناحيتها
وقال وقد ارتعش صوته وبرقت عيناه - مدهش ... رائع ...
ما كنت احسب أن صوتك ساحر الى هذا الحد يا حورية -
نخفضت بصرها وقالت وهى تأخذ مكانها الى جوارى - اذا كان
هذا حقاً فالفضل راجع الى أستاذى -

قالت ذلك وهى تشير الى بابتسامة عذبة فقلت - بل الفضل

راجع الى موهبتك واستعدادك يا حورية -

فقال توفيق - على أى حال يجب أن تعلمنا أننا لن ننام الليلة حتى
تسمعنا حورية أحسن ما عندها من أغاني -

وهنا اعتدلت فاتن في مقعدها وقالت وهي تكتم انفعالا
حادا من الغيرة - ألم أقل لك أن لها صوتا لا مثيل له ، ولكن
لا تنس أن تطالب الأستاذ شوقي بإداء نصيبه في سمر هذه الليلة ،
دعه يقص علينا أحدث روائعه القصصية -

وحاولت عبثا أن أتخلص من هذا العبء اذ كنت
أشعر بضجر لا حد له ولكنى أكرهت آخر الأمر على ما لا
أحب فأذعنت للحاحهم وأخذت أحكى لهم قصة لم أفرغ منها
الا في ساعة متأخرة من الليل .

وعندما ودعنا توفيق وفاتن آخر السهرة عند باب
الحديقة قال وهو يصافحنا بحرارة

— كيف أشكركما ، أن سرورى بوجودكما معنا الليلة لا يعدله
سرور ، ولا شك أنه يسر فاتن أن نرد لكما الزيارة في منزلكما غدا -

وكنت اثناء حديثه أرقبه خلسة وهو يرمق وجهه
زوجتي بنظراته الجشعة الملتهبة وأعاني من جراء ما أرى وأسمع

ثورة تجمجم في رأسي وتضطرم في احشائي ، فلما فرغ من
عبارته تمالكت نفسي وقلت - اننا نرحب بذلك كل ترحيب -
فقال - اذن نحضر لزيارتكما بعد الظهر -
فقلت - بكل سرور .. إلى اللقاء -

ولم أنم ليلتي فقد كان على أن أفكر فيما ينبغي على عمله
لحماية حورية من هذا الشيطان ، وتجنّبها ويلات صداقته الخطرة
وسوء عواقبها ، وقضيت ليلي ساهرا يوسوس الشيطان في
ضميري وتزلزل الغيرة في صدري وبقيت على ذلك ساعات دون أن
انتهى إلى رأى أو أبلغ من تفكيرى إلى غاية . وأخذت أفكر
في ذلك طول يومى التالى دون أن أصل إلى نتيجة ، وأقبل
توفيق وفاتن قرب الساعة الرابعة وأمضيا معنا وجهه النهار
وشطرا من الليل وعندما ودعناهما عند منتصف الطريق وعدنا
إلى دارنا كنت قد أقنعت نفسى بضرورة وضع حد لهذه
المناورات التى يعدها توفيق لايقاع حورية في حبائله بعد أن
وقفت من أشاراته وتليحاته ونظراته في تلك الليلة على ما يخفى
من أمره ، هنالك قررت أن أرحل بها إلى حيث لا ترى هذا
العطف الآثم الذى يظهره لها ، وإلى حيث لا تسمع عبارات
اطرائه التى ينثرها على مسامعها ، وإلى حيث لا ترى هذه النظرات

الفتاكة التي يحاول أن يصرعها بها ، واستقرت نيتي في اليوم التالي على السفر إلى بلدة « الخضيرات » حيث يقيم أحد أصدقائي مع زوجته ، فأرسلت إليه كتابا أوعزت إليه فيه أن يرسل في طلبي لمساعدته في انجاز بعض أعماله ، ولما جاءني خطابه في الصباح توجهت من فوري إلى دار رسمية هانم واطلعتها عليه وطلبت منها السماح لي بإجازة أقضيها مع صديقي على أن أعود قبيل حفلة الزفاف ، فترددت في اجابة طلبي لاعتقادها أنني ما أقدمت على هذا الطلب إلا للهرب من استقبال يونس بك وأمي عند حضورهما ولكني ما زلت بها حتى اقتنعت وحققت رغبتى ، أما توفيق فقد أنكر هذا السفر وضاق به وألح في تأجيله ولكنه لم يلبث أمام اصرارى أن اذعن لارادتي وودعنا كارها .

وكان صديقي يدعى « صادق » وكان يقيم مع زوجته في دار شيدتها له الحكومة في منطقة خلوية ممتعة للاشراف على الري في تلك الناحية ، وكانت حياتها سعيدة مريحة هائلة فطابت لنا الإقامة معها وسعدت نفوسنا بما أضفياه علينا من حفاوة وما احاطانا به من كرم ضيافة ، بيد اننى وقد بدأت أبرأ من هواجسى وظنوني في تلك البقعة الجميلة لم ألبث أن ابتليت بهواجس وخواطر أخرى جديدة منشؤها في هذه المرة أحلام مزعجة

استبدت برأسي وطاردت منامي ، وكان أبي هو مصدر هذه
الخواطر المزججة التي روعت قلبي وطففت على مشاعري وغمرتني
بموج ثقل بغيض لم استطع أن أمضي في احتماله والصبر على
وطأته ، كانت قوة خفية تدفعني الى التفكير في أبي وكنت
لا أغمض عيني حتى تقفز صورته الى مخيلتي وهي تتطلع الى
صارخة متوسلة ، وكانت لا تمر ليلة واحدة دون أن أحلم به ،
وكانت كل أحلامي صورة متكررة للرؤيا التي شهدتها في القطار
عند قدومي الى العزبة في العام الماضي .

و ذات ليلة استيقظت فجأة من نومي مذعورا على أثر
رؤيا هاجت منها أعصابي وتبلبلت لها خواطري ، فقد رأيت
أبي يهبط السلم الخشبي الى النهر وهو يزفر ويلهث كما رأيت
عشرات المرات من قبل ، ولكنه كان في هذه المرة يعدو بكل
ما فيه من قوة وهو يتطلع الى انسان وحشي المعالم كان يحد في
أثره ويسرف في تتبعه . وكانت حورية أثناء ذلك راقدة الى
جوارى فلما أحست بحركتي وصيحتي نهضت مذعورة وما رأت
وجهي حتى اتسعت حديقتها من فرط الخوف ثم أسرع
وارتمت على صدري وهي تقول بصوت راعش مضطرب

- شوقي !! ماذا حدث ؟ ما بالك تنظر هكذا ؟ -

فبذلت مجهودا جبارا لاستعادة سكينتي ثم قلت - حورية ...
أعتقد أنه يحسن أن أصارك ببعض الأمور الآن -

فقلت وهي تتشبث بكنتي - حسنا يا حبيبي ، ولكن قل لي قبل
أن تفعل انك بخير -

فقلت وأنا أربت كتفها - اني بخير يا حورية ، ولكن هناك
ما أحب أن أقصه عليك لتمدني فيه برأيك ومعونتك -

فقلت وهي تضغط بحرارة واخلاص على صدرى - أخبرني
بكل شيء وأقسم لك اني لن اتوانى في مساعدتك ولو اقتضى
الأمر التضحية بحياتي -

- ليس هذا الأمر مما يحتاج الى تضحية ، وكل ما فيه أننى فريسة
أحلام مزعجة تطاردنى وتمعن فى تغذيتى -
فسألتنى - وما موضوع هذه الأحلام ؟ -
فقلت - أبى -

وأخذت أقص عليها كل ما رأيته من بدء رؤيا القطار الى نهاية
هذا الحلم الغريب الذى أزعجنى ، وما أن فرغت من ذلك حتى
تطلعت الى وقالت فى عطف وتأثر وحنان - هذا أمر شقيت أنا
الأخرى به عقب سجن أبى ، وأعتقد أن السبب فيما تعانيه راجع
الى العاطفة القوية العميقة التى تسكنها لأبيك -

فقلت - هذا صحيح ، فقد كنت أحب أبي حبا لا حد له -

فقلت - اننى أجدر الناس بمعرفة هذا الحب فقد كنت متعلقة
بأبي الى درجة الهوس لفرط حبه لى وحنانه البالغ على -

فقلت - وما رأيك فى تطابق مشاهد رؤيا القطار على معالم
البلدة التى غرق بجوارها ؟ -

فقلت - يخيل إلى أن للوهم دخلا فى الموضوع -

فقلت - هذا محال ، لقد كنت فى تمام وعي وقتذاك ورأيت
البلدة بعيني رأسى ومن غريب الأمر أن هذه أول مرة أزور
فيها الوجه القبلى -

فقلت - ربما كان الأمر محض مصادفة وإلا فماذا تظن ؟

- هذا ما يسبب حيرتى ويبلبل أفكارى -

- إذا كان الأمر كذلك فأنى أرى أن نقوم بزيارة سمالوط

فربما نجد هناك ما يهدىء من روعك ويسكن من خواطرك -

فقلت وأنا أحس موجة من الراحة تغمر نفسى - حسنا يا حورية ،

إذا كان الغد فسرتحل إليها سويا -

° ° °

ولن أنس تلك الساعة التى قادتنا فيها أقدامنا إلى أحد

أزقة سما لوط ، كان نفس الزقاق الذى طالما شهدت والذى يعدو
متعشرا فيه فى منامى ، وكانت الساعة وقتذاك قد بلغت الثالثة
بعد الظهر وكانت حورية تسير بجوارى وهى ترقب فى ذهول
ما عرانى من فزع ودهشة واضطراب وحينما بلغنا نهاية الزقاق
وانعطفنا إلى اليمين لاح لنا فضاء شاسع وبدا النيل عن كشب
وهو يتوهج تحت أشعة الشمس ، وهنا نددت عنى صرخة ثم
أمسكت بذراع حورية وجذبتها إلى وأنا أقول فى فزع
— أنظرى .. السلم الحشبي -

فنظرت إلى مشدوهة وقالت وهى تلتصق بى - كفى هذا ياشوقى ،
اننى خائفة -

فقلت وأنا أعانى دوارا شديدا كاد يصرعنى - أريد أن أعرف ،
يجب أن نتبين جلية الأمر -

وأمسكت بيدها أعينها على السير حتى اقتربنا من السلم وما كدت
ألقي عليه نظرة حتى تراجعحت إلى الخلف وأنا انتفض لغرابة ما
رأيت ، ذلك أن السلم كان يشبه إلى حد ما ذلك الذى رأيته فى
منامى ولكنه كان أصغر وأقصر ، ولم يكن هناك انسان غيرنا
فدرت بنظري أحصى المكان وقد احتوانى دوار شديد كاد يحجب
الضوء عن عيني ، ولما اشتدت بى الأزمة أمسكت بيد حورية فى

شده كالغريق الذى يتشبث بجبل النجاة وقلت فى عبارة يغشاها
الاضطراب

— اننى أعانى أزمة لا تحتمل فلم بنا الى المحطة -

وعندما أخذت مكانى فى القطار قلت لها

— اننى لست بمن يؤمنون بالخرافات ولكنى أوقن يقينا
لا يخالطه شك أن هناك علاقة خفية بين أحلامى وبين
مصرع أبى -

فسألتنى - وبم تفسر ذلك ؟ -

فقلت وأنا مستسلم لهاتف غامض - ليس لذلك من تفسير سوى
أن والدى قد مات منتحرا -

فقلت فى دهشة - منتحرا ؟ أتظن ذلك ؟ -

فقلت وأنا غارق فى أفكارى - هذا ما اعتقده وليس لدى الآن
فكرة واضحة عن سبب انتحاره ولكن الشيء الذى أذكره أنه
حينما ودعنا وارتحل منذ ستة عشر عاما كان فى حالة شديدة من
القلق والانقباض والكآبة -

فسألتنى - وهل كان لذلك من سبب ؟ -

فأجبته - لا أدري تماما ولكنى أذكر أنه كان ينسب متاعبه الى
آثار نجمت عن المرض -

فسألتنى - اذن فأنت تعتقد بأنه أقدم على الانتحار تخلصاً من آثار المرض ؟ -

فقلت - اننى أرتاب فى ذلك لانه برغم ادعائه كان بعد ابلاله فى صحة جيدة ، وفى رأي أنه كان يعانى أزمة نفسية لا تـمـد ، لآثار المرض بصلة -

وقضينا فى ضيافة صديقى « صادق » بضعة أيام أخرى وجدنا فيها من أسباب الراحة والمتعة والصفاء ما أنساني خلل أعصابى وسلانى عن أفكارى وخواطرى وبعد أسبوع جاءتنى رسالة من رسمية هانم أنبأتنى فيها بوصول يونس بك مع أمى الى العزبة وطلبت منا فيها ضرورة التعجيل بالحضور للاشتراك فى حفلة زفاف فاتن ، فاذعنا لمشيئتها وقررنا السفر فى اليوم التالى .

الفصل العاشر

وفي الصباح ودعنا صديق صادق وزوجته ثم ركبنا سيارة انطلقت بنا صوب العزبة ، وعندما بلغنا باب حديقة دار رسمية هانم كان في انتظارنا هناك توفيق وفاتن ، وكانا على ما يظهر قد رأيا السيارة وهي تصعد الطريق عن بعد فما أن هبطنا حتى أسرعنا إلينا وصاحخانا في شوق وحرارة ، وانتحي توفيق بي ناحية وقال وهو يربت كتفي في مودة ظاهرة - ستعرف الآن أي خدمة جليلة قدمتها لك -

فنظرت إليه وقلت متسائلا - خيرا ... ماذا هنالك ؟ -

فقال وهو يبتسم - لقد مهدت كل شيء ، وسترى الآن بأي حفاوة ستقابل حورية من يونس بك وثرثريا هانم -
فقلت - هذه أنباء سارة ولا شك -

فجذبتني من ذراعي واقترب من حورية وفاتن ثم قال موجهما الحديث الى حورية - هيه ، كيف أمضيت أيامك هناك ؟ -

فقالت وهي تتحاشى النظر الى عينيها الفاحصتين - كأحسن

ما يكون -

فابتسمت فاتن وقالت - أن حورية لا يطيب لها العيش الا في
الخلاء ولذلك فلا بد وأن تكون قد قضت وقتا سعيدا للغاية -
فقال توفيق لفاتن - معنى ذلك أنه سيكون عليك أن تفكرى
كثيرا فى الملامح التى ستسليها بها عند سفرها معك بعد الزفاف -
فسرت فى جسمى رعدة وكنت على وشك أن أفتح فمى للكلام
حين استطرد يقول لى - لقد تحدثنا مع يونس بك أمس فى هذا
الشأن فاستقر رأى على أن تصحبانا لقضاء وقت معنا بالقاهرة
وقد فعلنا ذلك لعلنا بأنك لا تمنع فى ذلك ، فما رأيك ؟ -
فقلت وأنا أتكلف البشاشة - لا أدرى اذا كانت الأعمال هنا
تسمح بذلك أم لا -

فقال - لاشك أنها تسمح لاسيما وأننا لن نرحل قبل شهر
أو أكثر -

فقلت - آه ، هذا شيء آخر ، وما دام هناك متسع من الوقت
فسيكون أمامنا فرصة للتفكير -

وكنا فى ذلك الوقت قد بلغنا الباب الداخلى ولم نكد
نضع أقدامنا على الدرج حتى ظهر يونس بك وأمى ورسمية هانم
على العتبة وكان يونس بك مرتديا ثوبا واسعا متناهيا فى البساطة

ولكنه على جانب كبير من النظافة والأناقة فلما وقع بصره علينا هبط بضع درجات وهو يتسم واقترب مني وصاحني في حرارة ثم تحول ناحية حورية وعيناه تطفران سرورا وأعجابا ثم حياها وصاحفها وطبع على جبينها قبلة أبوية حارة وهو يقول — مرحبا بك يا بنيتي ... انني لم أكن أدري أنك فتاة ممتازة الى هذا الحد -

وكانت أمي أثناء ذلك قد تقدمت مني وعانقتني عناقا حارا ولما جاء دور حورية أخذتها بين ذراعيها وأخذت تقبلها وتضمها الى صدرها مرارا .

ولما أخذنا أما كننا في غرفة الاستقبال قال يونس بك — والآن أخبرني يا شوقي، كيف ترى العمل في الريف ؟ -
فقلت - انه يلائمني تمام الملاءمة -

فقال - هذا ما حدثتني عنه رسمية هانم ، كما حدثتني عن التحسن الذي طرأ على مزارعها بفضل جدك ونشاطك واخلاصك -
فقلت - اذا كان هناك من تحسن فالفضل فيه راجع الى ما لقيته من رسمية هانم من عون وتشجيع وتعزید -

فقال - هذا شيء اغتبط له ، وما دمت ترى لذة في القيام بمثل هذا الاشراف ، فإنه لاشك يسرك أن تسدى الى خدمة شخصية -

فقلت - اتنى رهن اشارتك -

فقال - أظنك تعلم اتنى كنت أملك بضعة أفدنة فى مديرية المنيا -
فقلت - نعم ... اتنى أعلم ذلك وأظنها تزيد قليلا عن ثلاثين فدانا -
فقال - تماما ، ولكنها الآن تقرب من المائتين بفضل استبدال
جزء من معاشى واستحقاق ثلاث (بوالص) للتأمين على الحياة -
فقلت - نعم ما فعلت ، ان امتلاك الاراضى من المشروعات
المرجحة الناجحة -

فقال - حقا ، ولكنها لا تكون كذلك اذا أعوزتها اليد الحازمة
والخبرة العلمية ، ولقد تحدثت مع رسمية هانم فى ذلك الليلة
الماضية فقبلت عن طيب خاطر أن نتقاسم معونتك بصورة
لا تثقل عليك -

فقلت - اتنى لا أعترض على رغبة لك -

فقال - شكرا لك ، وأما من ناحية تقسيم وقتك فسنترك لك
الحرية فى العمل هنا وهناك ، على أننى أظن أنه يكفينى جدا
أن تزور مزرعتى مرة أو اثنتين فى الأسبوع -

فقلت - بكل سرور .. وسأبدأ ذلك ابتداء من الأسبوع القادم -
فقال - لا .. لا داعى للتعجيل ، بوسعك أن تشرع فى ذلك فى
أول الشهر القادم أما الآن فلا ينبغى أن تفكر فى شيء غير

زفاف فائق .

وفي مساء اليوم التالى أقمت وليمة عشاء فى دارى تكريما
ليونى بك وأمى حضرتها رسمية هانم وتوفيق وفائق وشنودة
أفندى ، وعندما فرغ الجميع من تناول العشاء وانصرفوا إلى
السمر فى غرفة الاستقبال انتهزت فرصة انشغالهم بالحديث
وانفردت بأمى فى غرفتى الخاصة وكاشفتها بمسألة أحلامى الغريبة
والشكوك التى تساورنى بشأن أبى ، فلما فرغت من قصتى
رأيتها ترفع عينها إلى السماء فى ضراعة وتأثر وخيل إلى أننى أرى
الدموع فى مآقيها وبعد لحظة تحولت إلى وقالت بصوت واهن
— لست أدرى بم اعلل ذلك يا شوقى ، ولكن أغلب الظن أن
لتعلقك الشديد بالمرحوم دخل فى الموضوع .

فقلت - ربما كان الأمر كذلك ، ولكن هل لى أن أسألك
سؤالا ؟ -

— سل ما تريد يا بنى -

— هل لك أن تخبرينى عن سبب السكابة التى كانت تلوح على أبى
قبل سفره تلك السفرة الغامضة إلى الصعيد ؟ -

شحب وجهها قليلا وقالت - لم يكن السبب هو أثار المرض كما
كان يدعى وإنما كان سببه شكوكا وأوهاما منشؤها الغيرة -

فقلت وأنا ارتجف - معذرة يا أماء .. ولكن لماذا حدث ذلك فقط في أخريات أيامه ؟

فتأملتنى لحظة ثم قالت - بخيل إلى ياشوقى من اسئلتك أن لك رأيا خاصا بمصرعه -

فقلت - هذه هى الحقيقة ، اننى اعتقد اعتقادا جازما أنه لم يميت مية طبيعية وإنما مات منتحرا -

فأفلمت من بين شفيتها أنه مكبوتة وقالت - انتحر !! كلا .. كلا ما أظنه أقدم على قتل نفسه بحال من الأحوال -

قلت - هذا هو اعتقادى والآن هل لك أن تفسرى لى علة تطور غيرته فى أيامه الأخيرة ؟ -

قالت - ان غيرته لم تتطور ولكنها كانت كامنة فى نفسه منذ اليوم الذى انتخبت فيه ملكة للجمال -

فقلت وأنا أجاهد قلقا حيسا بين جنبي - آه ، لا شك أن لهذا صلة بالتغير الذى طرأ عليه ولكن دعينى أسألك يا أماء هل ...

ولم استطع اتمام كلامى فقد انقبضت عضلات سحلق كأنما أصيبت بالشلل وبقيت لحظة لا أنطق بكلمة فقالت وهى تتأملنى مليا -

أننى أعرف تماما مايجول بخاطرك ياشوقى ، وليس لى ما أقوله فى صدد ما يساورك من شكوك سوى أن أقسم لك بأننى لم

أرتكب في حياتي أمرا مشينا -

فقلت وقد عاودتني سكينه نفسي - عفوا يا أمى أننى -..

فقاطعتنى مستطردة - هذه هى الحقيقة ، ولقد احتملت غيره أليك
وصبرت على ظنونه وهواجسه إلى أقصى ما تستطيع الزوجة
المخلصة أن تصبر عليه ولكنه أسرف فى الغيرة اسرافا اختلت
معه اعصابه وفسدت حياته ونقص حياتنا تنغيصا ، ولكن
لاشك أننا نتجنى عليه كثيرا اذا حملناه تبعة ما حدث فان سلطان
الغيرة لا يمكن أن يخضع للإرادة ولا يستطيع زوج مهما كان
حظه من القوة أن يمتنع عليه إذا طرأ عليه وخاصة اذا كان بين
يديه زوجة يشتهيها غيره من الرجال -

وكان لهذه الملاحظة صداها العميق فى نفسى فاعترتنى هزة
عنيفة اضطرب لها قلبى اضطرابا شديدا ذلك أننى أحسست
كأننى المقصود بصوت هذا النذير الذى جاء عفوا على لسان
أمى ، ورحت للحال أفكر فى موقفى من حورية وموقف
توفيق وغيره منها ، وأخذت استعرض بعين الخيال صور الحياتى
المستقبله معها ، منها المخيف المنذر ، ومنها البسام المشرق ، ومنها
الغامض المضطرب ، ولم أفق من تأملاتى الا حين دنت أمى
منى وجذبتنى من ذراعى فى حنان وهى تقول :

- اننى أعرف جيداً فيم تفكر ، انك تفكر فى حورية أليس كذلك ؟ -

فقلت فى دهشة - عجباً ، كيف أمكنك قراءة أفكارى بهذه السهولة ؟ -

فقلت - اننى قرأت ذلك من عينيك ، والآن اذا كان لى ما أقوله لك فهو النصيحة بالآ تدع للشك والغيرة سيلاً الى قلبك ، والا أفسدت حياتك بيدك وخسرت زوجتك النادرة -

فالتفت اليها وحاولت الكلام ولكنها أسكتنى بأشارة وقالت - هلم بنا فقد أبطأنا عليهم -

وكانت الأيام التى تلت هذه المقابلة مليئة بدواعى قلقى واضطرابى فقد كان على أن أقاوم شعور الغيرة الذى يتلظى فى صدرى وينهش أعصابى ، وكان على فى الوقت نفسه أن أغمض عيني عن تصرفات توفيق وحركاته ونظراته وأفعاله ، وكان هذا كله بدافع الحرص على الاستجابة لنصيحة أمى من جهة وفى سبيل حبى الشديد لحورية من جهة أخرى ، وشهد الله كم لقيت من هذا الكبت وهذا الصراع من ألم وعذاب ولو أنى فى ذلك الوقت أطلقت لغرائزى العنان وأطعت الدوافع الشائنة التى كانت تتلظى فى صدرى لفتكت بتوفيق وحطمت حياته تحطيماً ،

ولكنى كنت أخشى ان فعلت ذلك أن يكون الفساد الذى
لوحت لى به أمى والمصير الأسود الذى اختتمت به حياة أبى ،
بيد أن هذه المقاومة ما كان ليكتب لها النجاح لولا ثقتى التى
لا أحد لها بحورية واطمئنانى التام الى شرف نفسها ، وإيمانى
العميق بنقاء ضميرها ، والواقع أن هذه الثقة لم تكن ثقة مبنية
على محض الشعور بطهارة نفسها ولكنها كانت وليدة دراسة
فاحصة مدققة محلسة اقتضت معها بأن زوجتى أقوى من أن
تغنو لسلطان جاذبيته وأعف من أن تستجيب لقوة اغرائه ،
وكانت دراستى لها وله قائمة على مراقبتها مراقبة دقيقة خفية
دون أن أثير شبهتها أو أحرك ظنونها ، فكنت ألاحظ كل
ما يصدر من توفيق من ألفاظ وحركات ونظرات ثم أرقب فى
صمت صدى ذلك كله فيما يضطرب على وجهها من مظاهر ، وما
يعتمل فى نفسها من عواطف ونزعات ، وقضيت فى ذلك أياما
لم أزد فيها الا ايمانا فوق ايمان واطمئنانا لاثوبه شائبة .

وكان الأمل الذى يراودنى فى قرب نهاية هذا الصراع
وزوال هذه المحنة معقودا بحلول يوم الزفاف ورحيل توفيق مع
عروسه الى القاهرة ، فأخذت أحصى الأيام وأعدها عدا ، ولكن
شاء القدر الا يعجل لنا بالرضا ويسرع بنا الى السعادة فقد توفيت

أم حورية قبل الزفاف بأيام قلائل وترتب على ذلك تأجيل
حفلة الزفاف أربعة أسابيع حدادا عليها ، وبذلك كتب على أن
أعود الى ممارسة هذا الصراع العنيف الذى لا يوصف وهذه
الحياة البغيضة التى لا تطاق .

الفصل الحادى عشر

ومضت أمورنا بعد هذه الوفاة على ما تعودت أن
تمضى عليه بين ترقب وتيقظ وسهر من جانبي ، ومحاورة وتحايل
ومراوغة من جانب توفيق وظلت الحال على ذلك دون أن
ينتهى صراعنا الخفى الى غاية تسر أحدنا أو تسوء الآخر ،
واستمر الحال على هذا المنوال عشرة أيام رحل بعدها توفيق
بصحبة يونس بك الى القاهرة لمد أجل أجازته ولانجاز بعض
الأعمال المصلحية وظلا هناك أياما ثم عادا معا قبل حفلة الزفاف .

وأخيرا حل اليوم الموعود...يوم الزفاف، فبدت العزبة
فى أبهى حلة، وكانت الليلة الساهرة التى اقيمت بهذه المناسبة بالغة
الروعة بفضل البرنامج الفخم الذى أعدته رسمية هانم لها وبما
قدمته لصيوفها الذين تقاطروا من كل فج من ألوان الكرم
وأسباب المتعة والتسلية ، ومرت هذه الليلة بسلام وأوشك
اليوم التالى أن ينقضى بسلام أيضا لولا ما حدث من يونس بك
وتوفيق بسبب نبأ حمل اليها سرا ففرعاه واضطربا منه أشد
اضطراب ، وكان ذلك حوالى الساعة الثانية من بعد ظهر اليوم

التالى وكنت فى ذلك الوقت عائدا من 'عملى فرأيتها يستقلان
عربة فى عجلة واضطراب وقلق وينطلقان بها الى جهة مجهولة ، ولم
تستطع حورية ولا أمى ولا رسمية هانم ولا أحد من أهل العزبة
أن يفسر علة ما حدث وكل ما ذكروه أن رسالة وردت اليها
وانها ما كادا يتلوان محتوياتها حتى اضطربا وبادرا بالرحيل ،
وكانت دهشتى بازاء ذلك الموقف عظيمة لغرابته وشذوذه ،
وقضينا وجه النهار وساعات طويلة من الليل نخمن ونحدس الى
أن قطع علينا جبل الحديث صوت قرقرة عربتها وهى تقترب
من البوابة الخارجية ، فأسرعنا جميعا لاستطلاع الخبر وحينما
وقع بصرهما علينا هبط يونس بك ثم تقدم ناحيتنا وقال وهو
يخفى اضطرابه - لا تنزعجوا ، لاشئ هناك مطلقا ، كل ما فى الأمر
اننا سمعنا نبأ خطيرا عن مركز الشركة المالى ولكن أتضح أنها
ليست الا شائعة كاذبة .

وقضى يونس بك طيلة اليوم التالى معتكفا بالمنزل أما
توفيق فقد استقل مركبة قصد بها الى نجع حمادى حيث قضى
بها عدة ساعات ثم عاد ولازم يونس بك الى ساعة متأخرة من
الليل وفى اليوم التالى أمر يونس بك باعداد امتعته وحقائبه ثم
بارح العزبة الى القاهرة مع أمى .

وانقضى هذا اليوم واليوم التالى كما انقضت الايام
السابقة دون أن يحاول أحد منا أن يتحرى سر هذا القلق
الطاغى الذى كان ينشر يونس بك ويطويه قبيل سفره وبعد
ثلاثة أيام سافر توفيق مع عروسه لقضاء شهر العسل فى الأقصر
وبذلك خيم على العزبة الهدوء والسكون والدعة ، وإذ كان
يونس بك قبل سفره قد نبه بضرورة سفرى إلى عزبته لتفقد
شئونها فى أقرب فرصة فقد انتهزت فرصة رحيل توفيق وسافرت
إلى المنيا تاركا حورية وحدها وأنا قريير العين مطمئن البال .

وحينما وصلت عزبة يونس بك راعنى ما كانت عليه
من اهمال وفوضى وفساد ، الأمر الذى دعانى إلى مد أجل أقامتى
أسبوعا وفى خلال تلك المدة تمكنت من النهوض بها بعض الشيء
فقمت باصلاح ما يمكن اصلاحه وبذلت جهودا كبيرة فى تقويم
المعسوج من شئون المشرفين عليها وارشادهم وبعد أن أتممت
مهمتى ودعت من فيها وعدت أدراجى إلى عزبة رسمية هانم .
وعندما وصلت أطراف العزبة أمرت سائق العرببة أن يدور
حول الحديقة كي ألقى نظرة على أعمال بعض البستانيين فلوى
عنان الجواد وانطلق يدور بالعربة حول السور الكبير وما
كدت أمد رأسى من النافذة وأدور بنظرى فى أرجاء المكان حتى

استقر على ما أرسل الرعب والفرع في قلبي ، ذلك أننى بدلا من أن أرى البستانى وغلبانه رأيت (توفيق) واقفا يدخن غليونته على حافة قناة صغيرة وهو يصيد سمكا بشصه ، أجل ، كان توفيق بعينه ، وما أن استقر الشعور بوجوده في نفسى حتى صحبته رعدة قوية سرت في كيائى ، وخوف مفاجئ مشى له قلبي ، وعندما وقفت العربة لم أقو على الحركة ولبثت أطلع اليه في ذهول وفاق إلى أن تقدم ناحيتى ومد يده مصاحفا وهو يقول وعلى فمه ابتسامة غامضة .

— اه ، شوقى ، ها أنت ذا عدت أخيرا ، كيف وجدت الحال هناك ؟ —

فهيبت من العربة وسرت معه ثم قلت وأنا أجاهد للسيطرة على أعصابى - لا بأس بها ... وكيف حال الأقصر ؟ -

فقال فى تأفف - سحقا لها ، لقد كنا على وشك الاختناق فيها ، يا لها من بلد لعين -

فقلت وقلبي يخفق خفقا شديدا - عجبا ، هذا كلام أسمعه عن الأقصر لأول مرة -

فأجابنى - هذه هى الحقيقة ، والواقع أن هذه الزيارة خيبت ظنى - فقلت - ومن أجل ذلك اختصرت مدة أقامتك هناك -

فقال وهو يمسك ذراعى يميناه فى مودة متكلفة - طبعا ، وماذا كنت أستطيع أن أفعل ، إن جو هذه البلدة لا يوافقنى على الإطلاق -

فسألته وأنا اتفحص وجهه خلسة - ومتى عدتما ؟ -
فأجابنى - منذ أربعة أيام .

وما كاد يتفوه بعبارة حتى قفز قلبى من مكانه وشعرت بالعرق البارد يغمر وجهى ، وحاولت أن أتكلم ولكنى ما كدت أهم بذلك حتى ابتدرنى قائلا - الا تريد أن أحدثك عن زيارتنا اللاحقة ؟ -

فقلت - أظن أنه يجدر بى أولا أن أذهب إلى دارى لأننى متعب للغاية -

وعندما تركته مشيت استحث الخطى نحو دارى والهواجس تنتهبنى وتضطرب فى رأسى ، وأوغلت فى الحديقة ثم اجتزت الفضاء الذى يفصل بين دار رسمية هانم ودارى وما كدت أقطع نصف المسافة حتى الفيت نفسى مضطرا إلى النظر ورأى حين شعرت بوقع خطوات تدب هناك عن بعد فوق الحصى وعندما تحولت بىصرى رأيت (توفيق) واقفا عند بوابة حديقة رسمية هانم وهو يرمقنى بنظرات غريبة وعلى فمه

ظل ابتسامة انقبضت لها نفسى .

ووقفت لحظة أمام الباب كى استعيد سكينه نفسى
وأجفف العرق المتصبب على جبينى وبعد برهة طرقت الباب
ففتحته الخادمة ولأول مرة لم أر حورية تسرع الى نسائى
كالعادة وإنما لحظتها تقف عند قمة الدرج وقد شحب وجهها
واضطربت حركاتها وظهرت على وجهها امارات قلق غامض ،
ومن العبث أن أصور مدى ما انتابنى من جزع فى تلك اللحظة
ولكنى مع ذلك استطعت أن أخفى شعورى وارتيقت درجات
السلم فى هدوء وما أن اقتربت منها حتى أسرع لملاقائى فعانقتها
وعانقتنى ووقفت لحظة اتطلع الى وجهها الشاحب وعينها التائمتين
ثم سألتها - ماذا بك يا حورية ؟ أنت مريضة ؟ -

فأحنت رأسها ثم رفعتها وهى تبذل جهدا لتكلف الهدوء - ما بى
من شيء ، كل ما فى الأمر انى أرقت كثيرا فى الليلة الماضية -
فقلت وأنا أتأملها - ولعنك لا تبدين فى حالتك العادية ، انك
مضطربة للغاية -

فقالت والكلمات تتعثر فى حلقها - لست مضطربة ولكن السبب
الحقيقى غريب ، فقد حلمت الليلة السابقة كأنى أجول معك تلك
الجولة الخيفة فى سمالوط -

فقلت وقد هدأت وساوسى - اذن فهذا هو السبب ... انه لاشك
سبب كاف لاثارة القلق ، ولكن لا ينبغي أن تفكرى فى
هذا الأمر بتاتا يا عزيزتى -

ولم أحاول بعد ذلك أن ألح عليها بالسؤال فقد خشيت
إن فعلت أن أظهرها على شكوكى وكنت أكره ما أكون
لاظهارها على مثل هذا الشعور ، وما لبثت أن أخذت يدها بين
يدى وأنا أقول فى بشاشة - تعالى وخبرينى كيف أنفقت هذه
الأيام التى قضيتها بعيدا عنك -

وعندما دخلنا غرفتنا وأخذت تعيننى على خلع ملابسى
قالت - حقا يا شوقى ، لا ينبغي بعد اليوم أن تتركنى وحدى ،
انك لاتدرى كم يزعجنى ابتعادك عنى -

فقلت - لاتقلقى يا حورية فلن أفعل ذلك بعد اليوم واذا حدث
وسافرت فسأصحبك معى -

فقالت وهى تنظر الى فى حنان - هذا أدعى لغبطتى وسرورى
فلست أحب الا أن أكون دائما بجوارك -

فقلت - انك تعلمين يا حورية أن هذا هو شعورى أيضا ، والواقع
اننى ما تركتك هذه المرة الا لوثوقى بأنك ستجدين فى رفقة رسمية
هانم ما يؤنس وحشتك -

قالت - حقا، لقد كانت الأوقات التي قضيتها معها مسلية ولكنها لم تكن مبهجة للغاية -

فسألتها - ولماذا؟ أمريضة هي؟ -

قالت - أجل، انها تعاني ألما شديدا من نوبات المغص -

فقلت - اذن لا بد وأن يكون ذلك هو السبب الذي حمل توفيق وفاتن على التعجيل بالعودة -

فاصفر وجهها قليلا وان لم تبد اضطرابا على أنها حالمات نظرتي المصوبة اليها تماكنت نفسها واستردت هدوءها وقالت - لست أدري .. ولكنني أظن أنها عجلا بالعودة لأن الإقامة هناك لم ترقها -

فقلت - ياللعجب، يخيل الى أن توفيق هذا لا يروقه شيء في الوجود، متى عاد ياترى؟ -

فأجابتنى - منذ أربعة أيام -

وترددت لحظة قبل أن ألقى بسؤال التالى حتى تهدأ الزوبعة التي كانت تعصف برأسى، ولكي أخفي شعورى حولت وجهى نحو النافذة وقلت - لعلها لم يبخلا بتسليكك أثناء غيابى؟ -

فقلت وهى تتشاغل بترتيب ثيابى - هذا ما فعلته فاتن فقد كانت تزورنى يوميا، أما توفيق فاني لم أره الا مرة واحدة -

وكأنما أرادت أن تؤكد ماتقوله فاستطردت - وفي هذه المرة
أمضينا السهرة بجوار فراش رسمية هانم -

وكان هذا الكلام خليقا أن يبعث في نفسى الهدوء ، ويرد
عن عقلى خواطرى المقلقة المظلمة ، ولكن الصيغة التى ألقى بها
وحالة الاضطراب التى كانت بادية على حركاتها جعلتنى فى ريب
من أمرها واختلاط ، وأخذت طول يومى أسائل نفسى عن علة
هذا القلق الحبيس الذى تجاهد فى كتمانها فلا أجد من نفسى الا
جوابا واحدا وهو أنها تخفى فى نفسها شيئا خطيرا وأمرًا ذا بال .

وقبيل المساء خرجت لزيارة رسمية هانم وهناك وجدتها
وحدها تقاسى ألما فى أحشائها أما توفيق وفاتن فلم يكونا هناك ،
وعندما سألتها عنها أخبرتنى بأنها خرجا للتريض فى المزارع ،
فخرجت بدورى بعد أن قضيت معها وقتا وانطلقت صوب
شاطئ النيل لأتريض قليلا ، وخلال هذه الرياضة أخذت أقنع
نفسى من جديد بأن ماساورنى من هواجس ليس من الحقيقة فى
شئ . ورحت ألوم نفسى وأعنفها على سوء ظنها وأزعم أن حبي
لحورية قد أخرجنى عن طورى وأن الغيرة الطائشة هى التى
وسوست لى بالشر والشك معا ، ويظهر أننى أفرطت فى محاسبة نفسى
على سوء ظنها بحورية لأننى ما كدت ألقى زوجتى عند عودتى إلى

دارى حتى زایلنى قلنى وأمضيت معها وقتا طويلا أحبوها بعطنى
وأبئها عجائبي وحي حتى اذا ما كان الليل استقبلت النوم قرير
العين هادىء النفس ناعم البال .

على أن هذه الراحة لم يقدر لها أن تستمر طويلا ففى
صباح يوم أقبلت فاتن على مكتبى فى المزرعة فى حالة هياج
عصبى بالغ وما كادت ترانى حتى طلبت الانفراد بى فى كلمات
ثائرة ملتهبة ، وأدركت للتو من حضورها على تلك الصورة أن
وراء الأمر أخباراً منكراً ، وقد أصبت فى ظنى اذا ما كاد يخرج
آخر رجل من المكتب حتى طرقت الموضوع الذى جاءت من
أجله فقالت وعيناها الضيقتان تلمعان بسريق الحنق والهياج
والغضب .

— اسمع ... اننى ما جئت الا لاندرك بأننى لم أعد احتمل
تصرفات زوجتك أكثر مما احتملت ، فاذا لم تقلع عن جمودك
وبرودك وتبادر بوضع حد لتصرفاتها - فأنى سأعرف كيف أوقفها
عند حدها -

فوجف قلبى وارتعدت فرائصى وأخذت أهدق فى وجهها
لحظة ثم قلت

— زوجتى ! ما خطبها ؟ -

فراحت تهدر قائلة - لست أدري اذا كنت تعرف شيئا عن الطريق الوعر الذى تسير الآن فيه أم لا ، ولكنى سأجعلك تعرف كل شيء ، أنها تستغل طيبتك وثقتك العمياء استغلالا شائنا منكرًا ، أنها فتاة لا تعرف حدا للفضيلة ولا ... -

فقاطعتها وأنا انتفض - صه ، ما هذا الذى تهدين به ؟ -

فقالت فى غضب - لا تقاطعنى ، أننى أدري الناس بهذا النفاق الذى تتكلفه زوجتك معى ومعك لأننى على علم بكل ما يدور بينها وبين توفيق فى الخفاء -

فانقبضت عضلات قابى وتطلعت إليها فى فزع ثم قلت - فأتى ١١ كيف تجرئين على اتهامها بهذه التهمة وكلنا نعرف أنها ... -

فقاطعتنى - تلك هى الحقيقة ، وإذا كنت فى ريب فافتح عينيك وراقب زوجتك ، راقبها جيدا وحينئذ ستعرف تماما حقيقة علاقتها الأثمة بتوفيق -

فصحت فى دهشة - علاقتها الأثيمة ١١ ما أفضح ما تقولين -

فقالت - ألا تصدق ، اذن دعنى أعيدها مرة أخرى على مسمعك ، دعنى أصارحك بأنها خانتك معه أكثر من مرة -

فوثبت من مكانى كالجنون وقبضت على ذراعها وأنا أهرها بقوة

— تكلمى .. ، صار حينى بالحقيقة ، والوبل لك إذا كانت غيرتك
الحقهاء هى التى دفعتك إلى هذا الكلام -

فضحكت ضحكة هستيرية وقالت - ها ، .. يا لك من مسكين ،
أتريد أن تعرف ما حدث أثناء غيابك ، أتريد أن أبوح لك
بالنبا الخطير ، أتريد أن تعرف ما تم بينها يوما أثناء غيابك ،
إذن فاعلم أنها تسلا معا إلى المزارع فى الظلام حيث قضيا
ساعات فى خلوة لم يعودا منها إلا فى ساعة متأخرة من الليل -
وصعقت لهذا التصريح وقلت - فأن ، أواثقة أنت مما تقولين ،
تكلمى ، أواثقة أنت من صحة هذا الخبر -

فقالت وهى تترنح بين يدي - اننى واثقة منه وثوقى من وقوفى
الآن أمامك -

فسألها - وكيف عرفت ذلك ؟ -

— رأيتهما من النافذة عند عودتهما خلسة ولقد زاد وثوقى عندما
تسلل توفيق الى دارها فى الليلة التالية -

فقلت وأنا استند الى حافة المكتب لأتحاشى السقوط - ربما لم
يكن ذاهبا اليها -

فقالت - أظننى أجدر بالمعرفة لأننى رأيتهما بعينى رأسى بعد ذلك
وهما يتسللان الى الخارج فى الظلام ، ولقد حدث هذا أثناء

وقوفى فى النافذة وعندما حاولت اقتفاء أثرهما كانا قد غابا بين
أعواد القصب -

- وماذا قال لك توفيق بعد عودته ؟

- لم أشأ أن أظهره أو أظهرها على وقوفى على سرهما مخافة
أن أثير حنقه وموجدته على -

فاقتربت منها وقلت - اسمعى يافاتن .. ان هذا أفزع نبأ سمعت
به فى حياتى ، ورغم أننى أميل الى تصديق روايتك الا أننى
لازلت أشك فى أقدام حورية على مثل هذا العمل الشائن ،
ولذلك فأنى أرجو أن تتكلمى الخبر الى أن أتأكد بنفسى
من صحته -

فقلت فى انفعال - اذا كنت لاتصدق فراقبها ، راقبها جيدا
وخير ما تفعله أن تتظاهر بالسفر لتداهمها على غرة -

فقلت وأنا ارتجف - هذا ما سأفعله ، ولكنى أرجو أن تعينينى
على مهمتى بالتزام السكتان -

فقلت وهى تهتم بالانصراف - ليكن لك ماتشاء ... الى اللقاء -

الفصل الثانى عشر

وكان هذا النبأ بمثابة صاعقة انقضت على فزقت أعصابى
تمزيقا ، وبقيت ساعة فى مكانى لا أدرى ماذا أفعل من هول
ما كان يتنازعنى من عواطف وانفعالات ، وما يحتمد فى قلبى
من ثورة وهياج ، وحالما عاودتنى القدرة على التفكير بعد أن
هبطت هذه الأنباء الى قرارة نفسى أخذت أفكر فيما ينبغى
عمله على ضوء هذه الأنباء الخطيرة المروعة ، وقضيت فى ذلك
زمنًا قمت بعده وقد جمعت العزم على وضع حد لحالة الشك
والريب التى أرهقتنى وهشمت أعصابى . وكانت الخطة التى
انتويت انتهاجها أن أظاهر بالجهل لاستدراج حورية فاذا لم
أصل من ذلك الى غاية واضحة هيات لها فرصة للاجتماع بتوفيق فى
وجودى لعلى أقع أثناء حديثها على ما يفضح سرهما ويكشف
دخيلة نفسها فاذا لم أصل من ذلك الى نتيجة لجأت الى المشروع
الآخر الذى اقترحته فأن .

وعندما بلغت دارى فتحت لى الخادمة الباب وكانت
حورية فى ذلك الوقت جالسة فى ركن من القاعة تخط ثوبالى

فلما أحسست بمقدمى تركت ما بيدها ونهضت تستقبلنى وتقول فى بشاشة - شوقى ، كم أود أن تلقى نظرة على هذا الثوب ، إنه يناسبك تماما -

فأمعنت النظر الى وجهها الشاحب لحظة ثم قلت - آه ، حقا ما أجمله ، شكرا لك -

فقلت وهى ترمقنى بنظرة فاحصة - ماذا ؟ يخيل إلى أنك لست مسرورا اليوم ، هل حدث شئ ؟ -

فقلت وأنا أرقب اصفرارا كثيبا يتسلل الى وجهها - كلا ، كل ما فى الأمر أننى متعب للغاية -

ومع أننى نجحت فى اخفاء شعورى الا أننى أحسست بأننى أرسلت الى نفسها شيئا من التوجس والريبة ، فلما سعدنا الى الطابق العلوى وبدأت فى خلع ملابسى كان القلق واضحا على ملامحها والاضطراب ظاهرا فى نبرات صوتها ، واتصلت بيننا لحظات صامتة لم نعرف فيها كيف نقول ، ولكن كان لا بد لى أن أقول شيئا ، وكان لا بد لى فى الوقت نفسه أن أتخير أنسب الالفاظ للتعبير عن فكرتى الوعرة المتناول فالتفت اليها وقلت وأنا أتصنع عدم المبالاة - ياله من يوم لعين ، است أدري لماذا تأبى المتاعب الا أن تتجمع كلها فى يوم واحد -

فتطلعت إلى في اضطراب وقالت - متاعب !! وهل لهذا من سبب ؟ -

فأجبتها - طبعاً ، وسبب ذلك تعرفينه تمام المعرفة -

فانتفضت انتفاضة مروعة واصفر وجهها وقالت - أنا .. ترى ما هو ؟ فقلت وأنا أجاهد رعدة عنيفة - لا أخالك نسيت هذا الموسم وما يتسم به من مشاكل بين المزارعين ، وقد عانا منه اليوم خطب كاد يكون وخيم العاقبة لولا تداركي اياه في الوقت المناسب ، أتعرفين جارنا حافظ بك ؟

وهنا سكن اضطرابها وانبسطت أسارير وجهها وقالت - أجل ... ما خطبه ؟ -

فقلت - لقد وقع بين رجاله ورجالنا نزاع كاد يفضي إلى مجزرة لولا مسارعتي ومسارعته إلى فضه بالحسن -
فقلت - نعم ما فعلتما -

فقلت - اننى أومن بسهولة التغلب على المصاعب إذا ركن الانسان إلى الحكمة والتعقل ، وهذا ما فعلته اليوم فان الرجل ما كاد يدعونى إلى زيارته حتى لبث دعوته وقضيت معه ومع أبنائه وقتاً انفقناه فى أحاديث ودية للغاية ، وهذه المناسبة هل صحيح أنك اخترقت مزرعتهم ليلتين متابعتين دون اخطارهم

بذلك ؟ -

فندت عنها صرخة مكبوتة واصفر وجهها اصفرارا شديدا وقالت
- أنا !! يا الهى ، كيف يجرمون على تلك القرية ؟ -

فقلت - عجبا ، ألم تذهبي إلى هناك حتى ولو على سبيل التريض ؟ -
فارتجفت أهدابها وشحب فيها القاني وقالت فى صوت متهدج
- ابدا ... ابدا ... أقسم لك -

فقلت وأنا أرقب سحنتها المتقلصة - وعلام القسم يا حورية ،
أن هيتك توحى إلى أنك صادقة وأن كنت أرى أن الأمر فى
حد ذاته بسيط -

وتوجهنا إلى غرفة المائدة وجلست بحوارها وأنا
أحس هذا التردد بين الشك واليقين وبين اليأس والرجاء ، ولكن
ميلى الى الشك ما لبث أن قوى واشتد حين صحبتها فى مساء اليوم
التالى إلى دار رسمية هانم ، فانها ما كادت تلقى (توفيق) وما كادا
يتصالحان ويبدءان الحديث حتى استيقنت من حركاتها المستترة
ونظراتها المريبة المختلصة ما أرسل الريبة إلى نفسى وقوى الشك
فى قلبى ، ولم أحاول فى هذه المرة أن أقمس التأويل والتعليل فقد
كانت كل المظاهر التى كانت تختلف على وجهيها حين يتحدثان
وحين يصمتان تدل دلالة واضحة على وجود صلة جديدة مريبة

بينها ، وأى صلة تنتظرها بين هذا الشاب الأباحى المستهتر وبين زوجتى الحسناء الفاتنة التى تشتهىها الآعين ، أنها أن لم تكن صلة خزى وإثم وعقوق فهى على أقل تقدير صلة مبرأة من الطهر والنقاء .

وفى أثناء السمر صمت لحظات قاسية أخذت أرقب فيها فى حسرة هيكلى حى وهو ينقض حجرا فوق حجر ، واثما فى ألم عواطف الأعزاز والتقدير وهى تتهارب إلى زوايا عقلى وتردد هناك كأصداء عهد غفلة لا مثيل له .

ثم أخذنا نتحدث كما تعودنا أن نفعل فى كل سهرة وأشهد اننى وفاتن قد أظهرنا فى تلك الليلة من الصبر والاحتمال ما لا يطيقه بشر ، وليس معنى ذلك أنها خرجا أمامنا عن حدود الوقار والاحتشام ، كلا ، ولا ظهر عليهما ما يثير فى نفس الانسان العادى ما يريب ، ولكننا لعلنا بدخيلة نفسيهما كنا نعلم مغزى كل نظرة ومعنى كل كلمة وهدف كل إشارة ، وفى نهاية السهرة لم يودعنا توفيق إلى باب الحديقة كما كان يفعل دائما ولكنه اكتفى بتوديعنا عند الباب الداخلى وعندما صاحنا قال لنا - الا تخرجان غدا للصيد ؟ -

فقلت - كما تشاء ، ولكن الا يحسن أن نرجى ذلك الى اليوم

النالى ؟ -

فقال - حسنا ، ولسوف ترى حورية كيف أنافسك فى السبق
والصيد معا -

فقال حورية باسمه - اننى لا أحب ركوب الحيل ولا صيد
الطيور ، ومن أجل ذلك لا أحب أن أحضر -
فقال بلهجة الأمر - كلا ، يجب أن تحضرى ولسوف أعليك
الرماية بنفسى -

فأجابته - أرجو أن تعفينى من ذلك لأننى لا أجد من نفسى
ميلا اليه -

فقال - لن أعفيك بحال ، فقولى بأنك ستحضرين -
فقال مستسلمة - اذا كنتم ترون وجودى ضروريا فساأحضر -
وكان سر هذا الاستسلام مفهوما ... لقد امتلكها
توفيق واستولى على قيادها وأصبحت متاعا هينا بين يديه .

وعندما عدنا إلى دارنا قضت حورية وقتها فى التودد
إلى وملاطفتى واغراقى بسيل جارف من عواطفها ، وكان السر فى
ذلك الاندفاع مفهوما أيضا فقد كان هذا كله محاولة منها للتكفير
عن خطيئتها أو ذرا للرماد فى عيني حتى لا أراها ، على أن أمد
هذا الخداع لم يدم طويلا فما كادت تنقضى على ذلك ساعات حتى

وقعت مفاجأة لم تكن تخاطر لي على بال ، وأنى لأذكر هذه الحادثة كأنها وقعت بالأمس لغرابتها وشذوذها ، فبعد أن قضينا وقتا في سمر بل ثقل اوى كل منا الى فراشه ، وكان فراشها يقع في الطرف الآخر من حجرة النوم ويفصله عن فراشى مقعد كبير ، ولم أستطع النوم عدة ساعات تلك الليلة فقد ظل عقلي مشغولا بما رأيت أما هي فما أسرع ما غلبها النعاس فتمددت في فراشها وراحت في نوم عميق ، وبقيت أتملبل في فراشى الى أن أخذتني سنة من النوم استيقظت بعدها فجأة على صوت حركة خفيفة في القاعة المجاورة فأمسكت أنفاسي وانتظرت لحظة وحينا تحولت ببصري ناحية فراش حورية راعنى أن رأيت خاليا وفي اللحظة التالية أحسست بتيار من الهواء ينساب الى من القاعة ثم رأيت ظلا من الضوء الخافت يتأرجح على الحائط المقابل يميننا وشمالا في حركات رتيبة منتظمة كدقات الساعة ، وتذكرت لاحال أن تيار الهواء لا يمكن أن يأتى بهذه القوة الا عن طريق باب الشرفة في القاعة الخارجيه المطلة على المزارع والذي كنا نحرص دائما على اغلاقه كل ليلة قبل النوم ، وترددت لحظة ثم رفعت عنى الغطاء في هدوء وبذلت بعض الجهد كي أهبط دون أن أحدث حركة أو صوتا ثم مشيت على أصابع قدمي حتى

بلغت باب الحجرة وانتظرت ، وحين مدت بصرى رأيت ما
توقعته فقد كان باب الشرفة مفتوحا أما الشيء الذى لم أكن
أتوقعه فهو الذى رأيته بعد ذلك ، فقد رأيت حورية واقفة
بجوار حافة الشرفة ويدها قنديل تحركه ذات اليمين وذات الشمال
وبين وقت وآخر كانت تقف لترقب ضوءا قائما يتحرك بنفس
الطريقة من بعد بين المزارع ، ولم أر شيئا بعد ذلك لأنها
ما كادت تستدير حتى اسرعت ووثبت الى فراشى وتظاهرت
بالنوم وبعد لحظة قصيرة تسلك حورية الى فراشها وانكسبت
فيه الى الصباح .

وفي الصباح خرجت مبكرا وأنا اتكلف البشاشة ثم
عدت بعد الظهر وأعلنتها باضطرارى الى السفر الى عزبة يونس
بك لتفقد الحال هناك ، وعندئذ تطلعت الى وقالت - ألا
تأخذنى معك كما وعدت ؟ -

فقلت - اننى لن أغيب طويلا هذه المرة ، انها مسألة يوم أو
يومين على الأكثر -

وخيل الى أنها ارتاحت لفكرة سفرى المنفرد وبعد
ساعة قبلتها مكرها وودعتها وانصرفت ، ثم ركبت عربة
أوصلتنى الى محطة نجع حمادى وهناك أمرت السائق بالتوجه

الى مكتب التذاكر لشراء تذكرة الى المنيا فلما جاءنى بها صرفته
ويتمت ناحية الافريز ، وعندما جاء القطار قفزت اليه وأخذت
مكاني في ديوان منعزل ، ومضى القطار يقطع طريقه صوب
الشمال ولكن بدلا من أن اهبط في المنيا هبطت في محطة
جرجا وهناك اعتكفت في أحد الفنادق الى أن هبط الظلام
وعندئذ أخذت القطار العائد ورجعت الى نجع حمادى ، وكانت
الساعة قد جاوزت العاشرة مساء حينما تقدمت الى باب منزلى
بخطوات بطيئة متسللة وعندما وقفت امام الباب شعرت بقلبي
ينخفق ، وبحلقى يحرق والعرق يندى من يدي من هول ما أنا
مقبل عليه .

وتمالكت نفسى وطرقت الباب ، ومضت دقيقه دون
أن أسمع صوتا فطرقت الباب للمرة الثانية فى شيء من العنف
وعلى أثر ذلك سمعت وقع خطوات سريعة تقترب وكنت أقدر
أنى سألقى الخادمة ولكنى ماكدت ادفع الباب حتى رأيت نفسى
امام حورية وجهها لوجه ، وما كادت ترانى حتى حملقت الى فى
ذعر وارتيباك وخيل الى فى تلك اللحظة اننى سمعت صوت
أغلاق الباب الخافى المؤدى الى المزارع فقدرت فى بساطتى لأول
وهلة أن الخادمة هى التى أحدثت هذا الصوت وان خامرنى

وسواس بعث الريبة في قلبي ، وعندما نظرت الى حورية رأيت
نظرتها تشف عن لون غريب من القلق ولكنها مع ذلك جاهدت
حتى ارتسم على شفيتها ظل ابتسامة ثم قالت - كم يسرني انك
عدت سريعا ، أم تراك عدلت عن السفر ؟ -

فقلت - لم أسافر لأنه لم يكن لي بد من البقاء لانجاز بعض
أعمال عاجلة -

فقالت وهي تغتصب ابتسامة رقيقة - لقد أحسنت صنعا ، هل
أعد لك العشاء -

فأجبتها - يحسن أن تدعى هذا للخادمة وتعالى معي لنتحدث قليلا -
فقالت في قلق وتعبث - ألا تنتظر قليلا حتى أعده بنفسى -

فقلت وأنا أتأمل اضطرابها - لاداعى ، نادى الخادمة ، ولكن
انتظري سأذهب اليها بنفسى -

فقالت لاهثة وهي تكاد تتشبث بذراعى لتحول بينى وبين الذهاب
- آه لقد نسيت أن أخبرك ، لقد خرجت انصاف لزيارة
أهلها ولما تعد بعد -

وما سمعت هذا الكلام حتى سرت في كيانى رعدة قوية ولم ألبث
أن تركتها ومضيت أنظر هنا وهناك في جنبات المنزل ثم عدت
اليها وقلت في صوت رهيب - اذن فمن هذا الذى كنت تقضين

السهرة معه ؟ -

وسرعان ما تبدلت ملامح وجهها تبديلا منكرا وراحت تحقق في بعينين جاحظتين فأحستين ثم قالت - ماهذا الذى تقوله يا شوقى ؟ ماذا تعنى ؟ -

فقلت - المعنى عندك وحدك -

فقلت فى انزعاج - لست أفهم يا شوقى ، ماذا تقصد بهذا الكلام - فقلت وأنا أصرف على أسناني غيظا وحنقا - أقصد أنك امرأة دنسة غادرة ، أقصد أنك كنت تلوثين شرفى مع توفيق كما لو تهماه من قبل عشرات المرات -

فقاطعتنى وهى تتراجع الى الوراء وتضم يديها فى عنف - أنا !! حرام عليك يا شوقى ، أنت الذى ترمينى بهذه التهمة ، أنت الذى تقول هذا الكلام يا شوقى -

فصحت فى وجهها مزجرا - أيتها الفاجرة ، لا تحاولى خداعى ... اننى أعرف كل شئ -

فترنحت فى وقفها حتى ظننتها ستقع مغشيا عليها ثم قالت - أقسم لك أنك مخطيء ، أنك لا تدري شيئا يا شوقى ، أنك لا تعرف شيئا فأتوسل اليك ألا تسرف فى اتهامى ، أه لو استطعت أن أجعل قلبك العزيز يعرف الحقيقة -

فقلت مزجرا - كفى أيتها الوضيعة الدنسة ، لقد وقفت بنفسى
على خيانتك واثمك وسأتولى بنفسى عقابك وعقابه ، سأريك
كيف يحاسبك هذا المخدوع الذى وطأت قلبه بقدميك ولوثت
شرفه بالعار -

وكانت تنصت لى وهى ترتجف أمام نظراتى الملهبة فلما
فرغت من كلامى قالت فى صوت يحنق بالدموع - شوقى ، بالله
تريث وسأبوح لك بالحقيقة ، أتوسل اليك أن تمنحنى فرصة...
فقاطعتها وأنا أندفع فى ثورة الى الباب الخلفى - الويل لك ياشقية
اذا كنت بهذا قد مهدت لافلاته... تالله لأنزان به أشد عقاب -

فهمت أن تشبث بذراعى ولكنى بادرتها بلكمة سكنت
عند فكها وأطاحت بها أرضا ، ولم أقف بل اندفعت نحو الباب
الخلفى ورحت أفتش فى الحديقة والحقول المجاورة باحثا عن
غريمى ، عن الرجل الذى مزق شرفى وسحق قلبى وعرضنى للعار ،
ولكنى لم ألبث أن عدت أدراجى بعد أن أعيانى البحث ،
وكانت حورية فى ذلك الوقت تحاول الوقوف على قدميها من
أثر اللكمة فلما وقع بصرها على وأنا اقتحم عليها القاعة فى ثورة
وجنونا تراجعت الى الورااء مذعورة وصاحت فى توسل ورعب
- رباه ، لا .. لا ... ، لا تقتلنى ياشوقى ، أنا بريئة ، أنا بريئة

أقسم لك أنني بريئة . أقسم لك أنك ستندم على فعلتك اذا عرفت الحقيقة -

ولم أعبأ بصراخها وتوسلها فاندفعت عدة خطوات الى الأمام ثم لطمتها لطمة قوية هوت من هولها على الأرض وهي تن وتلوى ولم أمهلها وإنما انحنيت عليها وأخذت أوسعها ضربا وركلا حتى انبتق الدم من فمها وسال غزيرا على وجهها وصدرها ثم تحولت عنها وأسرعت إلى غرفتي واختطففت مسدسي وانطلقت الى دار رسمية هانم في طلب توفيق ، وكانت فاتن أول من صادفتني هناك فلما لمحتني صاحت في رعب .
- رباه ... ماذا تريد ؟ -

فنجيتها عن طريقى فى عنف ووثبت الى الداخل وأنا أصيح
- أين توفيق .. أين زوجك الفاجر ؟ -
فقالته وهى ترتجف - آه ، ماذا حدث ؟ -
فصحت فى هول - أين هو ؟ -
- أنه لم يعد بعد -

- أنك تكذبين ... تكلمى ، أين هو -

- أقسم لك أنه لا يزال بالخارج -

- متى خرج ؟ -

— بعد العشاء —

وجاءت رسمية هانم على أثر ذلك منزجة وما رأتني حتى صاحت
في رعب .

— يا الهى ! ما خطبك يا أستاذ شوقى ؟ —

— اننى أبحث عن توفيق الذى لوث سرفى —

فصرخت وهى تدق صدرها — يا الهى .. ماذا تقول ؟ —

فقلت وأنا اندفع نحو غرفته — أكرر عليك ما قلته ، لقد لوث
الفاجر سرفى وعبث به وإذا أردت أيضا فاطلبيه من فائق —

وتركتها ورحلت أفشس سائر الحجرات ولما لم أعثر على ضالتي
خرجت ساخطا مزجرا وانطلقت إلى الخارج وأخذت أعدو في
العراء الى أن لحقت بى رسمية هانم مع بعض الخفراء وما زالوا
بى حتى أثنوني عن عزمى وعادوا بى الى دارى ، وكانت فائق
وبعض الخدم قد سبقونا الى هناك ليروا ما حل بحورية فلما
بلغنا الدار أسرعوا الينا وأعلنوا الينا النبأ الخطير ... نبأ اختفاء
حورية وعدم العثور لها على أثر .

الفصل الثالث عشر

وقضينا ليلتنا الرهيبة في بحث وتفتيش وترقب وانتظار
فلما ارتفع الضحى من الغد دون أن يعود توفيق أو يظهر أثر
لحورية أيقنا بأن الشقيين الغادرين آثرا الفرار تجنبنا للأذى
ورغبة في الفراغ لنفسيهما بعيدا عن أعين الرقباء، وفي اليوم
التالى أرسلت رسمية هانم إلى يونس بك تنبئه بالخبر وتستفسر
منه عما إذا كان قد بلغه عنها نبأ فلما جاءنا رده بالنفى زاد وثوقنا
فى انعقاد نية الهاربين على الاختفاء، ومضت أيامنا بعضها فى
أثر بعض وأمور الحياة فى الضيقة تضطرب بين الحزن الصامت
والأسى الممض وبين تكلف الانصراف عن المحنة الى أسباب
العيش وشواغله، ورغم أن حظى من هذه الكارثة كان أفدح
من حظ الآخرين، إلا اننى كنت أشدهم صبرا وأكثرهم على
المصيبة احتمالا، فأما رسمية هانم فقد هدتها النكبة هدا لشدة
ما عراها من جزع وأسى وأسف ولكن كان عليها أن تعتصم
بالصبر وتتظاهر بالتجلد لتبث فى نفس فأتى وفى نفسى الشجاعة،
وتعيننا على احتمال الكارثة، وأما فأتى فقد انتابها هياج عصبى

شديد لفراط حبها لتوفيق وشديد تشبثها بذكره ، ومن ثم أغلقت
دونها بابا واعتصمت بالعزلة وصرفت همها الى التفكير فيه في
صمت مطرق حيناً وفي انفعال وهياج جامح حيناً آخر .

ومضت أيام أخرى أحسست بعدها بضيق لا حده
منشؤه - فجلى من الحياة في هذه البيئة التي شهدت غدر زوجتي
واربحت من هول خيانتها هذا الى جانب أن المعيشة في دارى
كانت تكرهني بطبيعتها على الاستسلام للخواطر المزعجة وتهدى
لى الأسباب لاستعادة صور ماضى الدامى وذكرياته الأليمة
وعذاباته المفضية . ومن ثم عولت على اعتزال خدمة رسمية هائم
وبيت النية على مبارحة هذا الفردوس الملعون فى أقرب فرصة
ممكنة . وانتهزت لذلك وقتاً قل فيه نصيبى من العمل فتوجهت الى
دارها وكشفتها بهذه الرغبة ، وما كدت أفرغ من كلامى
حتى بان الجزع والارتباك على محياها وغاصت فى التفكير قليلاً
ثم قالت

— اننى لا أوافق على ذلك بتاتا لأننى فى مأزق من شر المآزق
وأحرجها بأستاذ شوقى ، واقعد زاده سوءاً تطور حالة فاتن
تطوراً مزعجاً للغاية ، فكيف بالله تتركنى لمواجهة كل هذه
المتاعب وحدى -

فسألتهـا - ألم تخفف المسكنات من حدة هياجها ؟ -

فقلت فى أسف - كلا ، فحالتها تسير من سيء الى أسوأ وهى

لا تكاد تكف عن البكاء والعيول حزنا على ضياع زوجها -

فقلت - عجباً ، أما زالت مقيمة على حب هذا الشيطان رغم

كل ما حدث -

فقلت فى ألم واشمئزاز - ليس هذا هو العجيب من أمرها إنما

العجيب أن حبها له ازداد قوة وعنفاً عما كان عليه من قبل ،

ولقد حاولت أن أرفه عنها لأعفيها من آثار هذه اللوعة الطائشة

والحب المخبول فما أفلحت ، ولست أدري والله ماذا دهي فتيات

هذا الزمن ، واحسرتاه ، لماذا ضعفت نفوسهن وانحطت

أخلاقهن الى هذا الحد -

فقلت - لقد كانتا بخير وكان من الممكن أن تظلا بخير لو لم

يمسها الشيطان وينفخ فيها من روحه -

فاغمضت عينيها لحظة ثم قالت - عليك لعنة الله يا توفيق ، من

كان يظن أن مثل هذا الجسد يضم بين جنبيه تلك الروح الشريرة -

ورأيت بعد ذلك أن أعود الى الموضوع الذى جئت من

أجله فقلت

- والآن يا رسمية هانم أريد أن تعيننى على وضع حد لمتاعبي

وآلامى ، ان استمرار بقائى فى العزبة أصبح أمرا لا طاقة
لى باحتماله -

فقلت - اننى أدرك تماما ما تعانیه ولكن دعنى أصارحك بأننى
لا أقر بحال هذا الاستسلام من شاب قوى الإرادة على الثقافة
مثلك ، ان الشجاعة تقتضى أن تواجه الواقع كما وقع لأنه ليست
هناك ثمة فائدة ترجى من الحزن والأسى واليأس فى موقف كهذا ،
حقا لقد أضناني وأوجعنى ما آل اليه أمر حورية ولكنها وقد
اختارت لنفسها هذا المصير الشائن فقد حقت عليها اللعنة ووجب
نبذ سيرتها نبذ النواة -

فقلت - ثنى بأننى لم أعد أحمل لها ذرة من الحب ولكن اصلاح
الفساد الذى سببته يتطلب زمنا طويلا وجهدا غير يسير -

فقلت - هذا صحيح ، وخير ما تفعله فى هذا الشأن أن تتسلح
بالعزيمة والإرادة القوية ، وأن تفيض على نفسك من ألوان
التسلية ما يكفل صرفك عن التفكير فى هذه المأساة ، واذا أردت
نصيحتى فانى اقترح أن ترتحل الى لبنان للاستجمام والراحة -

فقلت - هذه فكرة خطرت لى فعلا ، ولكن كيف السبيل إلى
تحقيقها وقد أبيت أعفائى من خدمتك -

- اننى على أتم استعداد لأن أمنحك اجازة كل عام وفى هذه

الحالة يستطيع شنودة أفندى أن يتولى عمالك لحين عودتك -

فسكت لحظة ثم قلت - اننى صراحة كنت متلهفا لترك الضيعة
ولكنى أمام عطفك ومودتك لا أستطيع الا الاذعان راضيا
لمشيئتك -

ونهضت على أثر ذلك فشدت على يدي بحرارة وقالت - شكرا
لك يا أستاذ شوقى ، انك بذلك تسدى الى جميلا لا أنساه -

ومضيت على أثر ذلك الى مكنتي فى المزرعة ومكثت به
ساعة ثم خرجت وفى عزمى أن أجول جولة فى الحقول لتفقد
شئون العمال كعادتى فى مثل هذا الوقت ولكنى ما كدت أسير
حوالى نصف ميل حتى ساقت الى الريح صوت جلبة آتية من
ناحية الشاطئ فاستدرت والتفت الى مصدر الصوت فاذا جمع
من الفلاحين يظهرون فجأة من بعد ثم يتجهون ناحية مكنتي فى
شئ من الاسراع وهم يحملون بين أيديهم حملا لم أستطع لبعد
المسافة أن أتبينه فتوقفت قليلا وأنا أشعر بضربات قلبي تزداد
وتتشدد ثم أسرع الى ناحيتهم وما كدت أدنو منهم وأتبين ما
بين أيديهم حتى أجفلت وأخذتني رعشة قوية قفز لها قلبي من
مكانه ، ذلك أن الشئ الذى كانوا يحملونه لم يكن سوى جثة
توفيق نفسه ، وكان الرجال فى ذلك الوقت قد دنوا من باب

المكتب فلما وقعت أبصارهم على أسرع بعضهم ناحيتي وأناؤني بالخبر ، خبر عثورهم على الجثة بعد أن لفظتها مياه النيل على شاطئ العزبة المجاورة .

وهنا عاودتني الرعدة وقلت في شبة ذهول - وجثتها هي ؟ ألم تعثروا لها على أثر ؟ -

فأجابني أحد الحفراء - كلا ، لقد بحثنا عنها في جميع المزارع الممتدة على الشاطئ والشاطئ المقابل دون جدوى -

فغمغمت اقول بضع كلمات مبهمة وأنا أجفف العرق المتصبب على جبينى ومشيت وهم من حولى الى مكان الجثة ثم وقفت على قيد خطوة منها وأخذت أرقب فى جمود جثة غريبى البشعة العفنة المنتفخة وهى طريحة غير بعيد من باب مكتبى ، والجم لسانى من فرط انفعالى وبقيت كذلك لحظة ثم مضيت الى مكتبى وأنهيت النبأ تلفونيا إلى نقطة البوليس ، وما هى الا ساعة حتى أقبل رهط من رجال الشرطة والتحقيق وأقاموا حول الجثة يسألون ويتحرون ثم دخلوا معى إلى المكتب ومضوا فى أخذ أقوالى وإن هم لذلك اذا بصوت مزعج فى الخارج يقطع علينا ما كنا فيه ويكرهنا على الخروج لاستطلاع الخبر وما كدنا نظهر على عتبة الباب حتى رأينا (فائن) تشق طريقها الى الجثة وهى

تولول وتصيح وتدفع الخفراء يمينا وشمالا حتى اذا ما بلغت مكانها ارتمت عليها وأخذت تقبلها وتضمها الى صدرها وهي تولول ولولة مشيرة مزججة، وحمد الجميع في أما كنهم وهم يرمقونها بنظرات ملؤها الشفقة والرثاء، أما أنا فلم يرسل هذا الموقف السخيف الى نفسى أية خلجة من خلجات الأسف والأشفاق، ولم يكن ذلك بسبب عوامل الحقد والضغينة والشماتة التى أحملها لتوفيق، وإنما كان مرجعه إلى شعور الكراهية والزراية الذى أحمله لهذا الصنف البدين السمج من النساء، ذلك الصنف الذى لا يستحى رغم ثقل ظله من الكشف عن عواطفه جهره أمام الناس، وهممت أن أمضى لأحول بينها وبين الجنة ولكن نظرة شذراء ملتبهة من عينيها ما لبثت أن منعتنى من التحرك وألزمتنى مكانى، ولما أدركت حرج مركزى أوعزت الى المضابط أن يتدخل لوضع حد لهذه المهزلة فأسرع مع بعض رجاله وما زالوا بها حتى خلصوا الجنة من بين ذراعيها ثم قادوها بعد جهد جهيد الى دارها .

وكان يجب أن أستقبل أيامى التالية بعد هذا المصراع هادىء النفس، قرير العين ناعم البال، وكان يجب أن أجد فى خاتمة توفيق راحة تستلذها النفس وشماتة يستعذبها القلب ورضا

يثلج الخاطر . ولكن من غريب الأمر اننى لم أجد فى ذلك
راحة ولا رضا ولا هدوما ، اذ لم يكن بد من أن أفكر فى
حورية وفيما انتهى اليه أمرها ، أحية هى أم ميتة ، أمقيمة هى
فى هذه البلاد أم ارتحلت الى ديار أخرى تلتبس فيها مأمنا بعد
الجرية التى قارقها والاثم الذى تورطت فيه ، ولم يكن ذلك
دون أن بشير فى نفسى آلاما الى آلام وشقاء الى شقاء ،
وما أكثر ما ترددت هذه الاسئلة فى نفسى وما أكثر ما جاش
بها صدرى ولكنى كنت أكتبها فى ضميرى وأضغطها فى قرارة
نفسى حتى لا تعذبني وتغرقني وتؤذيني فى جسمى وعقلي ، على
أنى لم أستطع ذات صباح أن أملك من أمرى ما تعودت أن
أملكه فخرجت أهيم فى القرى المجاورة باحثا مستقصيا وأخذت
انتقل من مكان الى مكان ورحت أذرع الشواطىء القرية
والبعيدة حتى اذا ما أعياى البحث عدت أدراجى مفرق النفس
مبلبل الخاطر ، ثم استأنفت السعى فى اليوم التالى دون جدوى
وأنفقت فى ذلك سبعة أيام متواليه استيقنت بعدها بأن حورية
قد ذهبت الى غير رجعة وانه لن يكون بينى وبينها بعد اليوم
لقاء ، هنالك تفجرت ينابيع الالوعة المكبوتة فى قرارة نفسى ،
وانبثق حبها الكامن فى مطاوى قلبي ، واذا بذكرياتها تحيط بي

وتغمرنى ، واذا بطيفها وهو يصيح بى أنا بريئة... أنا بريئة...
يتعقبنى ويطاردنى ويأخذ على كل سبيل ، وأذا بصورتها تقتحم
على أحلامى وتلونها بلون جديد غريب واليكم أحدهما : —

« رأيت نفسى أسير بجذاء شاطئ بحر خضم شاسع
وكان الطريق طويلا خاليا والبحر يرسل هديرا يصم الآذان وفى
السماء طيور تتصايح وتضرب بأجنحتها فى الفضاء ، وأخذت
أمعن فى السير الى غير غاية وفجأة لاح لى عن بعد شبحان ،
رجل وفتاة ، ولم أستطع أن أميز الرجل فقد كان غامض السحنة
مبهم الصورة أما الفتاة فكانت لدهشتى البالغة حورية ، نعم ، كانت
حورية بقامتها الممشوقة الرائعة وفتنتها الناضرة وشعرها الفاحم
المسترسل ، كانت كما عهدتها لولا هذه المسحة الحزينة التى تطفئ
على وجهها وتحيطه بهالة من الألم والأسى والخوف والحسرة ،
وكانت عندما دنوت منها قليلا واقفة كتمثال مصنوع من ضباب
وهواء ترقب الرجل أسفل الصخرة وهو يعدقاربا لهما على عجل ،
وكان النسيم يعبث بثوبها وبخصلتها المدلاة على جبينها الوضاء ،
وكان وهج الشمس الغاربة يرتدى على وجهها ويديها ويمتزج امتزاجا
جميلا بسائر أجزاء جسمها البديع فوقفت أرقبها لحظة ثم
رحت استحث الخطى خلسة ناحيتها وما كدت أسير خطوات

حتى انساب من جوانب الفضاء لحن جنائزى حزين خفقت له
جنبات المسكان ، وصمتت له كل الأشياء فى الأرض والسماء فى
استنامة سكرى ، وأخذت بسحر الموقف وروعة المشهد فوقفت
أرهف سمعى وأمد بصرى وقد هاجت شجونى وأدركنى شعور
عميق من الحزن والوجد والأسى ، وتنبت لى نفسى بعد وقت
خطوات عدة خطوات سريعة أدتنى من حورية وما كادت تحس
بى حتى جفلت ثم نظرت الى بكل ما فى عينيها من سحر وطهر
وحنان وهتفت .

— رباہ .. شوقى ، لماذا جئت ؟ كيف اهتديت الى مكانى ؟ —

فقلت - جئت من أجلك يا حورية خاصة ، وسوف أعود بك
لنستأنف حياتنا من جديد -

فقلت وهى تحملى فى وجهى - لا ، لا ، لن أعود معك ،
أناشدك الله أن تذهب -

فاقتربت منها وقلت - حورية ... عودى الى ، لا تتركينى وحدى ،
انى مستعد للصفح عنك ونبد الماضى ظهريا والى الأبد -

فامتقع وجهها حتى شابه بياض الثلج وقالت وهى تتوجع .

— أواه ، أما زلت تصدق هذا الأمر عنى ؟ —

فقلت - ما كنت لأصدق هذا الأمر عنك ، ولكن ماذا كان

بوسعى أن أصنع أمام غموض موقفك منى ، أخبريني يا حورية
وأصدقيني ، إذا كنت حقاً بريئة فما سر هذا التغير الذى طرأ
عليك -

فنظرت الى الرجل الغامض وكان فى ذلك الوقت مكباً على عمله
فى القارب وقالت فى صوت محتبس - لا أستطيع أن أخبرك ..
لا أستطيع ، هذا محال -

فقلت فى ضراعة - بل انك تحسنين صنعا باخبارى والا كنت
ظالمتى -

فقالت وهى تتقهقر أمامى - كلا ... كلا ... -

فقلت - ولماذا ؟ ألم يعد لحبى مكان فى قلبك يا حورية ؟ -

فقالت والدموع تنهمر على خديها - كلا ، أقسم لك أننى لن
أنساك ماحيت ، أقسم لك أن حبك هو كل شئ لى فى الوجود ،
فاذهب وليتولاك الله برعايته -

وخطت بضعة خطوات الى الوراء ثم هوت من فوق
الصخرة فتلقاها الرجل الغامض بين ذراعيه ودفعا بسرعة الى
القارب وقبل أن أتحرك من مكانى كان قد أعمل مجدافيه وأسرع
بالزورق بين العباب . فوقفت فوق الصخرة مسمر القدمين
أحدق فى الخضم المائل وأرقب الزورق وهو يتوارى بين أثباج

الموج وقد تخذرت قواى وتخاذلت أعصابى وبج صوتى وبعد لحظة سقطت سقطة أفقت على أثرها من نوى وجسمى ينتفض والعرق يتصبب من جبىنى .

وقضيت فى ذلك عدة شهور عانيت فيها من الأرق والعذاب ما أذبل قواى وحطم أعصابى ، ولولا أن رسمية هانم أسرعت وحرصتنى على السفر الى القاهرة لقضاء بضعة أسابيع مع أمى للترىض والترويح عن نفسى لفسدت حياتى وانتهى الأمر بى الى الجنون.

الفصل الرابع عشر

ولم يكن لى بد من الاستجابة لاقتراح رمنية هانم إذ كنت فى مسيس الحاجة إلى الراحة والابتعاد زمنا عن الضيعة حتى استعيد قواى واستيقن من قدرتى على العودة الى العمل ، وعندما وصلت الى دار يونس بك هرعت ألى لاستقبالى وتلاها زوجها على مهل فلما وقع بصرهما على وجهى ولاحظا ما عراه من شحوب ونحول بانى على ملامحها مظاهر الألم والجزع ، وكانت ألى أول من تحدث عن ذلك حين التفتت الى وقالت :- شوقى ، أنك تغيرت تغيراً يثير القلق ، هل أنت مريض ؟

فأجبته - كلا ، ولكننى فى حالة شديدة من الأعياء -

وعندما جلسنا فى غرفة الاستقبال قال يونس بك -

- اننا أعلم الناس بما تعانیه يا شوقى ، ولكننى ما كنت أظن أن شاباً له مثل صفاتك يضعف هكذا أمام أول لكمة من لطمت القدر -

فقلت - أنك لا تدرى كم جاهدت ودافعت ولكن الكارثة غلبتني وخطمتني -

فقال - لاندع اليأس يتسلط عليك يا شوقي ، نعم أن خطبك
خطب جنل ولكن ما ينبغي أن تنهار عزيمتك أمامه بهذه
الصورة -

وهنا قالت أمى - لا تأسف يا شوقي ، ان هذه الحالة لن تدوم وثق
أن الله سيعوضك عنها خيرا -

وكانت وليمة الغداء في اليوم التالى أشبه بمجفل عائلى
تشوبه المحبة والصفاء ولولا الانقباض الذى طرأ على محيا
يونس بك عندما مس الحديث مصرع توفيق لما شاب الحفل
البهيج أية شائبة واقد تلمست الحيرة فى وجهه عندما قال
- اذن لم يكن هناك من الظواهر ما يدل على أن فى الأمر
جريمة ؟ -

فبدت لى ملاحظته غاية فى الغرابة وقلت - كلا ، وكيف يحدث
ذلك وقد مات غرقا -

فقال - انك أجدر بالمعرفة طبعاً -

فقلت - تلك هى الحقيقة ولا شك أن موته على هذه الصورة
كان قصاصا عادلا -

فقال - حقا ، تلك عاقبة ما قدمت يداد -

قال ذلك ثم ألقي نظرة سريعة على ساعته ونهض على الأثر قبل

أن يستوفى طعامه وهو يقول

— أرجو المَعذرة إذا تركتكما فجأة اذ لا بد لي أن أذهب في الحال الى الشركة لانجاز بعض الأعمال الـمـاجلة ، وهذه المناسبة أرجو الا تقلقا اذا تأخرت فقد يقتضى الأمر سفرى الى الاسكندرية والبقاء فيها بضعة أيام -

فنظرت أمى اليه وقالت - مادام الأمر كذلك فأرجو أن لا يغيب عن بالك استئجار (فيلا) مناسبة لنقضى فيها فصل الصيف مع شوقى - فقال فى بشاشة - آه ، لقد أحسنت صنعا بتذكيرى ، ولسوف يكون ذلك أول شيء أفعله لدى وصولى -
قال ذلك ثم ودعنا وانصرف .

وقضيت مع أمى أسبوعا جهدت فيه فى التخفيف عنى وشغلى عن حزنى وضيقى بما كانت تفيضه على من العطف والحنان ، وما كانت تهيبه لى من أسباب المرح والنسليه فى ملاهى القاهرة ومجتمعاتها ، وفى نهاية الأسبوع عاد يونس بك من مهمته ورغم أنه حاول أن يظهر فى أقواله وأفعاله بمظهره العادى الا أننى أحسست أنه يعانى اضطرابا خفيا يتجلى فى نظراته القلقة الشاردة ، وحركاته المتعثرة واعيائه البادى ، ولست أنكر أن هذه الحالة قد أربكتنا وأذهلتنا خاصة وقد كنا نعلم أن أمور

شركته المالية في تحسن مستمر، وليس أوضح في بيان اضطراب أعصابه بما حدث بعد ثلاثة أيام من وصوله عندما كنا جالسين بعد العشاء نرتشف القهوة وتتجاذب أطراف الحديث الذي تناول ضمن ما تناول سيرة نجع حمادى ، وكان الهدوء يشملنا جميعا عندما ألقيته يضع فنجان القهوة فجأة ويقول في حدة - كلا يا شوقى ، حسبك من هذه الذكريات الأليمة ما سردت -

وتزايد القلق في مقلتيه وكست وجهه تلك السيء المنقبضة المقفرة التى كانت ترسم على محياه يوم ذهب وعاد من رحلته الغامضة في نجع حمادى ، وبعد لحظات تركنا فجأة ومضى الى غرفته وأطفأ النور ثم اضطجع على أريكة وأشعل سيجارة واستغرق في التفكير . وفوجئت بهذه العبارة الخشنة وهذه الحركة المفاجئة وبدا منى أكثر من علامة من علامات الامتعاض والالام ولكن أمى أسرع الى تهدئتي وقالت وهى تضع يدها على كتفى

— لا تسىء فهمه يا شوقى ، انك لا تدري كم يعذبه موقف مسكرتيره الشائن منك ومن زوجتك ، ولا يغرنك ما تسمعه منه من كلمات النصيح والتشجيع ، فانه لا يكاد ينفرد بنفسه حتى تفيض نفسه حزنا وكمدا على ما أصابكم جميعا -

ومن ذلك اليوم لم نعد الى الحديث عن حوادث نجع

حمادى قط ، وبعد شهر انتقلنا الى الاسكندرية وهناك وقفت
أُمى قلبها وعواطفها على اسعادى ، وفاضت على من حنانها وحبها
ما كان خليقا أن يمحو ما بنفسى من الضيق ، ويظهر ما بقلبي من
الهم ولكن هذا كله لم يجد معى شيئا فلم أتعز عن آلامى ولم
أجد فى مقامى معها راحة ولا تسلية ولا عزاء ، ومن ثم قررت
السفر الى لبنان فكتبت الى رسمية هانم أنبئها بهذه الرغبة فلما
جاءنى ردها بالموافقة أعددت عدتى ورحلت الى لبنان ، وكان
هذا فى صيف العام الماضى وقد وجدت فى ربوع لبنان الجميلة
ما عزانى بعض العزاء عن همومى وأحزان نفسى فلما استنفدت
أيام أجازتى وأخذت بحظى من الراحة والاستجمام عدت الى
نجع حمادى ، وبعد ثلاثة أشهر من عودتى زفت فاتن الى أحد
ضباط بوليس مديرية أسيوط ثم انتقلت للإقامة معه فى مقر
عمله هناك ، ولا أخفى عليكم اننى شعرت عقب رحيلها بارتياح
شديد وكان سبب ذلك عاملان ، أولهما أنها كانت الأثر الباقى
الذى يشير دائما الى مأساتى ويذكرنى بها وثانيهما اننى كنت أشعر
نحوها بكراهية شديدة ونفور لا حد له .

ومرت الأيام وأنا أحاول أن أسلو حورية وأمحو
ذكرها وأرفع عن نفسى ما خلفه مصابى فيها من حزن وألم ،

ولكنى وجدت فى ذلك مشقة وعنه عجزا ، وتوالت الشهور
والأيام وأنا حائر بين أحلام الليل وخواطر النهار ، تراودنى
فكرة غريبة مؤداها أن حورية لا زالت حية وانها ستعود الى
يوما من الأيام لتملأ حياتى فرحا وسعادة ، وقد يقهقه البعض
ساخرا منى ومن ضعفى وبلاهى ، ويعجب كيف يكون لى أن
أعلل النفس بعودتها بعد انقضاء ما ينوف على عامين على
اختفائها دون أن يظهر لها أثر يدل عليها ، وكيف يكون لى أن
أشهى عودتها بعد أن فاجأتها بدلائل خيانتها وجهتها بشواهد
اثمها ووقفت بنفسى على مبادل حبها الشائن وخزيتها الفاضح .

والواقع أنى لا أدرى بهم أجيب وبهم أفسر التناقض
البادى فى موقفى بعد أن ذكرت من مفصل الأمر وبجمله ، على
أنه يمكن تعليل ذلك بأحد سببين وهما اما أن تكون ارادتى قد
أصابت بصدع شديد لم تملك معه الا أن تنحنى أمام هذه اللطحات
التي توالت على فى هذه الفترة المضنية من حياتى ، واما أن أكون قد
نكبت بمرض نفسى ببدل شخصيتى وطبعها بطابع الشذوذ
والغرابة ، ولست أدرى أى هذين السببين هو الصحيح ولكن
الشيء الذى أدريه هو أنى فى يقظتى ومنامى أحس دائما بنداء
مجهول ينبعث من أعماق ايمانى ويردد هاتفا فى صدرى :-

« انها بريئة ... انها عائدة اليك - »

وقد يرى البعض في ذلك عرضاً من أعراض المرض
أو مظهراً من مظاهر الضعف وخلل الأعصاب ، وقد يرى
البعض الآخر أنه نتيجة من نتائج تفكيرى المتصل فى حورية ،
وصدى لاشواقى الكامنة المؤججة اليها ورغباتى المكبوتة
للاغتفار لها ، وقد يرى آخرون انه ليس مظهراً من مظاهر
المرض والخلل ، ولا صدى لحبى الكامن وشوقى المضغوط ، وانما
هو ظاهرة من ظواهر التحول الروحى حيث يشف القلب
وتجلى الروح ويزول عن البصيرة الغطاء ، وفى الحق أن هذا كله
صحيح ، ولو خيرت بين هذه التفسيرات لما فضلت واحداً منها على
الآخر لأنها فى جملة تصور حالتى النفسية اكمل تصوير وأصدق ،
فأنا منحل الجسم معتل الصحة محطم القلب مختل الأعصاب ما فى
ذلك شك ، وأنا ضائع بين وساوسى وأحلامى ، موزع الحس بين
خيالاتى وأطيافى ما فى ذلك ريب أيضاً ، وأنا أطوى على دفين
حبي ووجدى جوانحى ، وأعانى من كوامن شوقى وحمم قلبى
مايكفى لأن يجعلنى رمزا أبدياً لكل حب ضائع يائس ، كل هذا
أحسه وأحس معه بأننى عاجز عن أن أجد فى الحياة ما يشفىنى
من دائى ، وينقذنى من وهمى ، ويستل من بين جنبي دفين حبي ،

نعم ، اننى أعترف بأننى لازلت أهواها ، وليس يعنينى فى شيء أن ينظر الناس الى نظرهم إلى العبد الذليل أو الزوج الوفى النبيل ، فسواء عندى أمدحونى أم قدحوا فى ، لأن ذلك كله لن يغير من الحقيقة شيئاً وما الحقيقة الا أننى لازلت أحب حورية أعشق الحب وأقواه ، وأننى سأظل طول حياتى أميناً على حبها وفيا لذكرها .

• • •

هذه هى قصة حياتى دوتها مدفوعا بالرغبة فى أن أرضى فضولكم من جهة وأسكن عقلى المنضطرب ونفسى المعذبة من جهة أخرى وقد يتداخل بعض القراء العجب والشك فى هذه القصة اغرابتها وشدوذها ولكنى أبادر فأقول بأن كل الوقائع التى أودعتها هذه السطور إن هى الا حقائق لا أثر للخيال فيها إطلاقا ، وان صادف واستطاع أحد من القراء أن يمسك بطرف الحيط ويميط اللثام عن سر حورية فانى أناشده أن لا يرضن على بمعلوماته ، وليعلم اننى على أتم استعداد للصفح عنها والاعتذار لها بالغام ما بلغت خطوره البواعث التى حملتها على المسرب والاختفاء .

شوقى أمين
عزبة الرفاعية - نجع حمادى

الفصل الخامس عشر

وكانت الساعة قد جاوزت الرابعة بعد الظهر حينما فرغت فائزة من تلاوة القصة ، وعندما أغلقت الدفتر ووضعتة أمامها كانت امارات الدهشة والذهول تنتشر على وجوههم جميعا ، وأعقب ذلك فترة سكون قطعها عارف باشا بقوله

— حقا ، انها القصة غاية في الغرابة ، ولولا أن شوقى أقسم على صحة كل ما جاء فيها لما صدقت حرفا واحدا منها -

فقال جميل بك - أما أنا فيبدولى أن وراء هذه القصة سرا أكبر مما يبدو لأول وهلة والا لما هجرت حورية زوجها على هذا النحو رغم شديد حبها له -

فرفعت فائزة رأسها وقالت - وماذا كنت تنتظره منها بعد أن ارتكبت تلك الهفوة الكبرى في حق زوجها المتزمت -

ففكر قليلا ثم قال - من الصعب ان أقطع بالأسباب التي حملتها على الاختفاء ان كانت لا تزال حية ، ولكنى أحس بأن الدافع لها على ذلك شيء آخر غير الجريمة التي نسبت اليها -

فسأله زوجته - هل تعتقد أنها لم تأت هذه الفعلة المستكبرة .

فقال وهو يعبت بعصاه في الرمال - يخل إلى أن فتاة لها مثل هذه الصفات لا يمكن أن تقدم على فعلة كهذه بالسرعة والسهولة التي تمت بها -

فتطلع إليه عارف باشا وقال - اتظن ذلك حقاً؟ وما رأيك في موقف يونس بك؟ -

فأجابه - اننى استنتج أن هناك سرا يمكن وراء الاضطراب الذى بدا عليه فى أكثر من موطن فى حوادث القصة -

فقلت فائزة - اذن فأنت تعتقد أن له دخلا فى ابعاد حورية عن زوجها -

فأجابه - هذا ما أظنه -

فسأله - وما تظن السبب الذى حمله على ذلك؟ -

فأجابه - لا أدرى ، على أننا قد نستطيع أن نمسك بطرف الخيط اذا فكرنا فى هذه النقطة جيدا - واستغرقوا جميعا فى أفكارهم بحيث لم يلاحظوا بادية ذى بدء عربية تقف أمام بوابة الحديقة فلما تناهى اليهم صوت ضوضائها التفتوا ناحيتها وعندئذ رأوا الأستاذ شفيق يهبط من العربية ويسرع مهرولا ناحيتهم والفرح ينشره ويطويه ، وعندما اقترب منهم صاح فى حبور - يا لله .. أنتم هنا وقد قلبت الدنيا بحثا عنكم -

قهضوا يحبونه وقال عارف باشا - ليس الذنب ذنبنا وإنما ذنب
هذه القصة الملعونة -

فقال شفيق وهو يلقي نظرة سريعة على الدفتر - آه ، قصة شوقي،
هل استطعتم أن تهتدوا إلى السر -

فمالت فائزة - كلا ، وأتني لنا ذلك وقد عيت أنت بأمره -

فأجابها ضاحكا وهو يربت كتفها - أنا !! ومن قال لك إتنى
عجزت عن كشف معمياته ، وبهذه المناسبة لقد جئت ومعى
لكم مفاجأة لا تطراً على بال -

فمالت فائزة - خبرنا أولا هل وصلت المطربة ليلي -

فالتفت اليهم وأ - اريه تسطع بالحبور وقال - نعم ، لقد وصلت
حورية منذ الظهر -

فانتفضوا جميعا وقالوا فى نفس واحد - حورية !! -

فقهقه ضاحكا - نعم ، حورية ، لا تعجبوا انها أسمان لمسمى
واحد ، لحورية هى ليلي وليلى هى حورية -

وهنا ارتفعت أصواتهم ملحة مستفسرة وكانت فائزة أشدهم
شوقا وتلهفا فأخذت تمطره بوابل من أسئلتها دون أن تتلقى
جوابا شافيا وأخيرا قال - اذا ذهبنا إلى الفندق ، فسأحدثك
بكل شيء ، وإذا أردت فسأجعلها تعيد عليك القصة بنفسها -

فقالته وهى تشبث بذراعه لترغمه على الجلوس - لن نسير معك خطوة قبل أن نعرف منك سر اختفائها -

فقال - اننى أعدك أن أشبع رغبتك فى طريقنا الى الفندق ، فلم بنا حتى لا نبطئ عليها -

فاندفعوا جميعا نحو السيارة وبعد قليل كانت تنطلق بهم صوب الفندق .

وبدا الأستاذ شفيق يحكى لهم القصة قائلا :

« عندما وصلت ليلى أعنى حورية ظهر اليوم مع أمها واخواتها الثلاث ... -

وهنا قاطعته فائزة فى دهشة وتساؤل - ما هذا الذى تقول ، كيف يكون ذلك ولم يكن لحورية أم ولا أخوات ولا أخوة -

فضحك وقال - آه ، صحيح ، اننى أعنى زوجة أبيها وبناتها الثلاث ، وهى امرأة تزوجها عقب فراره الى العراق -

فقال جميل بك - اذن فقد فر الشيخ مروان من السجن -

فأجابه - اجل ، منذ نحو عامين على وجه التقريب -

فبدت الدهشة على وجوه الجميع وهتف جميل بك يقول - اذن

فلا بد وأن يكون لفراره علاقة باختفاء ابنته لأن موعد

فراره يتفق تماما مع موعد هربها -

فابتسم الأستاذ شفيق وليث يراقب دهشتهم وعجبهم في سرور وعلى شفّيته ابتسامته الخاصة ثم قال - هذا هو الواقع بعينه ، فهذا الرجل الذى توفى بالعراق منذ عام والذى استطاع أن يوهم الجميع بأنه أحد أبناء هذا القطر وتمكن بذلك من أن يتزوج من إحدى نساؤه ، هذا الرجل الذى لم يظهر قط على مسرح حوادث القصة لم يكن فى الواقع إلا البطل المستتر الذى يقبض بين يديه على مفتاح السر ، والآن دعونى أسرد لكم الوقائع كما سمعتها من حورية وإياكم أن تقاطعونى قبل أن أفرغ منها -

فقلت فائزة - اننى أعرف أننى المقصودة بهذا الكلام ولكن كن مطمئنا فلن أقطعك إلا اذا حاولت الاقتضاب -

فابتسم واعتدل فى جلسته وقال

- عندما وصلت حورية ظهر اليوم كانت تجهل جهلا تاما صلتى الجديدة بشوقى فلما عرضت عليها ملخصا لقصته (حطام قلب) لاستطلاع رأيها فى أمر استعاضتها بقصة « النجم الهاوى » اضطربت اضطرابا شديدا لم أدرك له علة ولكنى مازلت بها حتى اعترفت بالحقيقة وقصت على التفاصيل بخدافيرها ، وانكم اتمذكرون جيدا أن الانقلاب الذى طرأ على حياتها والذى أوقع الشك والنفرة والشقاق بينها وبين شوقى كان على أثر زيارة

توفيق للعزبة واسرافه في تتبعها ومحاولته اغرائها ونصب الشباك لها، فهل كان اضطراب جورية وقلقها وخوفها راجعا لوقوعها في الاثم كما ظن شوقي وكما توهم الناس جميعا، كلا وانما كان مرده إلى ذلك السر الرهيب الذي كاشفها به توفيق عقب زيارته ايرغمها به على الاستسلام له والاذعان لمشيئته والاستجابة لرغباته الأثيمة منها، فما هو هذا السر الذي كان يعرفه توفيق والذي قلب حياة هذه الأسرة وجلب على أفرادها كل هذا الحزن والشقاء، انه يتلخص في أن الشيخ مروان كان قبل ذهابه للخدمة في مزارع رسمية هانم منذ سبعة عشر عاما يعمل خفيرا بعزبة يونس بك في لمنيا، وكان رجلا شديدا بالبأس شديد الولاء لسيده، وكان يونس بك في ذلك الوقت يعيش في القاهرة عيشة اباحية مستهترة، وكان المعروف عنه أنه شديد التعلق بالنساء وخاصة الجميلات منهن، وكان توفيق اداته التي كان يعول عليها في الوصول إلى من لا يقوى على اغرائهن من الزوجات الحسان، فلما وقعت أبصارهما على ثريا هانم والددة شوقي شغف بها يونس بك وهام بها حبا ومن ثم أوعز إلى توفيق باغوائها فأخذ يتصدى لها ليخلب لبها ويضل هواها، ثم راح يلاحقها ويطاردها ولكنه لم يفز من وراء كل ذلك بطائل، هنالك بدأ يونس بك مع سكرتيره

يفكران في طريقة أخرى توصلها إلى تحقيق مآربها، وسرعان ماهداهما شيطانها إلى خطة ما كادت تنبثق في ذهنيها حتى بادرا بتنفيذها، وكانت الخطة في أول الأمر ترمى الى توطيد صلتها بأمين أفندي والد شوقي وأرضائه وذلك بترقيته والاعداق عليه فلما عجزا عن بلوغ مآربها عن هذا السبيل وضعا خطة للخلاص منه وازاحته من الطريق، ومن ثم عهدا اليه بمهمة مصلحية في سمالوط حيث كان ينتظره الشيخ مروان، وهناك استدرجه الأخير الى النهر وقضى عليه بصورة لم تحرك شبهة أو تثر مظنة، وبذلك نجحت الخطة فلقى الموظف المسكين حتفه على أبشع صورة واستولى يونس بك على زوجته، أما الشيخ مروان فقد كان جزاؤه على فعلته أن أرسله يونس بك مزودا بكتاب توصية منه إلى رسمية هانم لاستخدامه في مزارعها الغنية.

ولقد ظلت هذه السيرة طي الكتمان الى أن زار يونس بك وتوفيق رسمية هانم في مزارعتها لحضور حفلة زفاف فاتن، وكان يمكن أن يظل كل شيء سرا مستترا لولا أن داهمها نبأ فرار الشيخ مروان ولجؤه الى ما كينة رى مهجورة على بعد بضعة أميال من العزبة، واصراره على مقابلتها ومقابلة ابنته في مخبئه، هنالك اضطر با اضطرابا شديدا ولم يجد انصا من الرضوخ

لمشيئته مخافة اقتضاح سرهما ، فاستقلا عربة أوصلتها إلى حدود المزرعة ثم صرفا السائق ومضيا إلى المحبأ على الأقدام ، وعندما بلغا مكانه قابلها الرجل على عتبة الباب وهو مدجج بالسلاح ثم أدخلها وأخذ يتجاذب معها أطراف الحديث إلى أن طرق موضوع ابنته ، وهنا انتهزا الفرصة وسردا له قصة زواجهما من نجل الرجل الذي صرعه في سمالوط ، ثم انتهيا من ذلك إلى النصيح له بضرورة الرحيل ابقاء على سعادة ابنته وحرصا على هناها للزوجي ، وبعد نقاش وجدال اقتنع الرجل بوجهة نظرهما ولكنه اشترط لذلك البقاء بضعة أيام كي يتمتع برؤية ابنته وزيارتها خلسة فقبلا شروطه وتطوع توفيق باحضار حورية إلى المحبأ كلها سنحت لذلك فرصة ، وبعد أن تم الاتفاق بينها وبينه على هذا النحو ودعاه وانصرفا وعادا إلى العزبة في الحالة المريبة التي مر ذكرها في سياق القصة ، أما ما حدث بعد ذلك فأمره واضح تمام الوضوح ذلك أن توفيق أخذ يصطحب حورية سرا إلى مكان أبيها ويتسلل معها ليلا في المزارع وفي خلال ذلك استطاع أن يبثها هواه ويفصح لها عن عواطفه ولكنها صدته ونهرته وأعرضت عنه ، هنالك لم يربدا من البوح لها بالسربية التسلط عليها وامتلاكها فأفشى لها بالأساة بعد أن حذف نصيبه

منها ، ومن العيب أن أصور مبلغ الذعر الذى انتابها من جراء هذا النبأ الخطير الذى لم يكن لها على بال ، وكانت فى أول الأمر تظن أنها خدعة سعى بها توفيق ليقعها فى شركه ولكنها ما لبثت أن تحققت من صحتها بعد أن استدرجت أبيها وساقته الى الاعتراف بجزء من نصيبه فى الجريمة ، عندها اضطربت حياتها وفسدت أمورها ولم تجد وسيلة للنجاة من هذه المحنة الا بالمداراة والصبر والسكران فى سبيل حبها لشوقى ، ثم طالت هذه المصاربة وطالت معها مضايقات توفيق ومحاولاته حتى كان ذلك اليوم الذى لم تستطع فيه الصبر على عنته وارهاقه فقررت أن تضع لوقاحته حداً وانتهزت لذلك فرصة سفر شوقى الى المنيا فخرجت واتجهت سرا نحو مخبأ أبيها لتفتحه بموقف توفيق منها ، ولم تكن تعلم فى ذلك الوقت أن (توفيق) قد رآها وأخذ يتبعها عن كذب حتى اذا ما بلغت باب المخبأ توارى وراء شجرة انتظاراً لخروجها ، أما هى فقد دخلت توالى غرفة أبيها وبعد أن حيته حدثته فوراً بمتابعها وباحت له بمواقف توفيق الوقحة منها ، هنالك ثارت ثورة الرجل قهض والغضب ينهب نفسه ويرعد شفته وهو يقول :

— اذن فقد تبعك اليوم الى هنا دون أن تشعرى ليرغمك على

العودة معه في الظلام -

فقالت في دهشة وحيرة وارتباك

— يا الهى ، أكان يتبعنى ؟ -

فقال وهو يهيم بالخروج من باب الغرفة

— اجل ، لقد كنت أرقبه قبل دخولك ، والآن لك أن تطمئنئ

فلسوف أريحك نهائيا من وجهه ، واذا أبطأت عليك فلك أن

تبادرى بالعودة الى دارك -

فقالت - لقد سافر شوقى الى المنيا ولذلك يمكنك أن تحضر

لقضاء هذه الليلة فى المنزل -

فقال - حسنا ، سأوافيك هناك بعد ساعتين -

وخرج الرجل على اثر ذلك وفى عينيه حمرة الدماء ،

ورأته حورية من النافذة يقترب من توفيق ويصافحه ثم يسايره

بين المزارع ويختفى معه عن الانظار ، وبعد وقت اسرعت

بالعودة الى دارها وهناك صرفت الخادمة وظلت ساعات نهبة

للأفكار والخواطر حتى سمعت اشارة أبيها المتفق عليها فى الحديقة

فأسرعت وفتحت له الباب الخلقى واستقبلته فى غرفة الانتظار ،

وهناك أنبأها بالخبر المفاجئ .. خبر قضائه على توفيق فى النهر

تماما كما فعل مع والد زوجها ، واستمر الحديث بينهما ساعة

فوجئا بعدها بمداهمة شوقي المباغتة على الصورة التي وردت في
القصة فما كان من الرجل الا أن انسل خارجا من الدار ثم كمن وراء
شجرة وانتظر ريثما انتهت المعركة الدامية بين الزوجين وحالما
خرج شوقي في طلب توفيق كما ذكر برز الشيخ من مكانه واقترح
الدار ثم حمل ابنته الفاقدة الرشد ومضى بها الى المحبأ حيث أكب على
العناية بها حتى أفاقت ، وفي منتصف الليل تسلا معا وغادرا
القرية وبعد أيام عبرا الحدود ثم أوغلا فيها حتى استقرا في
العراق ، وهناك تزوج الرجل من أرملة عراقية مثرية أمدته
بمالها للاشتغال بالتجارة ولكنه ما كاد يمضي في ذلك قليلا حتى
لحق به الافلاس والبوار فراح يتعثر ويتخبط الى أن أصيب
بداء أودى بحياته .

وهنا سكنت الأستاذ شفيق لحظة ثم استطرد - هذا
كل ما هنالك ، والآن لا يبقى سوى أن تعدوا أنفسكم للقاء
بطلتنا الغامضة وحوريتنا الفاتنة المحبوبة .

وكان الجميع يصغون اليه في دهشة وذهول فلما فرغ
من كلامه أفاقوا جميعا من ذهولهم واستغراقهم وأخذوا
يثرثرون ويضربون كفا بكف من غرابة ما سمعوا ، وبعد
لحظات لاح لهم الفندق عن كسب فتطلعوا اليه وهم يتحرقون

شوقاً إلى رؤيته بطله هذه القصة العجيبة الفذة .

ولم تسكد العربة تقف أمام باب الفندق حتى هرع
لاستقبال الأستاذ شفيق كل من صاحب الفندق ومديره ، فلما
هبط هو ومن معه تقدم الرجلان وبادراه بالتحية فتقدم ناحيتها
وقال :

- آه ، لا بد وأنكما تريدان التحدث معي بشأن ترتيبات حفلة
الليلة ، أليس الأمر كذلك ؟ -

فقال المدير مبتسماً في أدب جم وسرور عظيم
- هو ذاك يا أستاذ ، وانك لتعلم أنها شغلنا الشاغل -
فقال الأستاذ شفيق ووجهه يسطع بالسرور
- حسناً ، وهل كل شيء على ما يرام ؟

فأجابه - على أتم ما يرام يا أستاذ ، هل تسمح بالمجيء لتلقى نظرة
على حوض السباحة -

فقال - هذا ما سأفعله بعد ساعة أما الآن فإني أود مقابلة الأنسة
ليلي مع أصدقائي ، هل ما زالت ملازمة غرفتها -

- كلا ياسيدي ، لقد بارحتها مع أفراد الأسرة منذ دقائق ،
ومن المحتمل أن تكون الآن في غرفة الاستقبال الخاصة -

- اذن أرجو ابلاغها انني قادم اليها مع أصدقائي -

وعندما انصرف الرجال راح الجميع يرمقون الردهة المؤدية إلى غرفة الاستقبال في لهفة وفضول ، وبعد وقت حضر أحد موظفي الفندق وقادهم إلى الغرفة وما كادوا يظهرون على عتبة الباب حتى خفت الفتاة ومن معها لاستقبالهم والترحيب بهم ، كانت فتاة تناهز الثانية والعشرين من عمرها تتألق فيها كل أضواء الحسن والنضرة والسحر الشرقي والعيون الوادعة ، ولم يكن معها عندما ولج القادمون الغرفة سوى زوجة أبيها وبناتها الثلاث اللاتي جاء ذكرهن آنفا ، وبعد أن تبادل الجميع عبارات المجاملة بدأ الأستاذ شفيق يقدم أصدقاءه إليها واحدا واحدا وهي تحييهم بركة وابتسامة عذبة ، وعندما جاء دور عارف باشا أمسك بيدها في عطف وقال

— كم نحن سعداء بلقائك يا حورية ، انها لمعجزة أن يتم لنا ذلك في اليوم الذي فرغنا فيه من قراءة قصة حياتك العجيبة ، ما أغرب أحداث الحياة يا بنيتي -

فقال في صوت عذب وهي ترفع عينيها إلى السماء

— حقا ، لقد عاملتني الأقدار بقسوة ، ولكن شكرا لله على هذه النهاية -

وهنا تقدمت فائزة وقالت وهي تشد على يدها وتتطلع الى

وجهاها في اعجاب وسرور

— لست أدري كيف اهتلك يا حورية ، لقد كنت أتصورك
فتاة جميلة والكنى لم أكن أعتقد أنك على هذه الصورة الفائقة؟ -
فابتسمت وابتسم الجميع واستطردت فائزة تقول وهي تأخذ
مكانها بجوارها .

— أنت جديرة بشاب عظيم مثل شوقي وما أرى الا أنك قد
خلقتما بعضكما لبعض -

فترقرقت الدموع في عيني حورية وصمتت لحظة وعندئذ
استأنفت فائزة حديثها قائلة
— ما يبكيك يا عزيزتي؟

فأجابتها - لا أدري تماما ، وانما أنا فرحة بعودتي اليه -
فقال جميل بك وهو ينظر اليها في تأثر واعجاب

— طبعا ، ولا شك أن هذا سيكون شعوره عندما يتلقى النبأ ،
وبهذه المناسبة هل تلا عليك الأستاذ شفيق كلمات زوجك
الحارة التي اختتم بها القصة -

فقال الأستاذ شفيق وهو ينقل نظره بينها
— لقد أخبرتها بأعم محتوياتها -

فقال جميل بك وهو يشير الى الدفتر بين يدي فائزة

— إننى أفضل أن تقرأها بنفسها لتقف على مقدار اخلاصه وحبها
لها —

وهنا ناولتها فائزة الدفتر وهى تقول فى جذل

— لقد قدم لنا الأستاذ شوقى هذا الدفتر هدية لنا قبل رحيله
فاسمح لى أن أقدمه بدورى هدية لك —

فأخذت منها الدفتر فى شوق ولهفة وبعد أن تطلعت الى بعض
صفحاته وضعته فى حجرها وهى تفيض عليه حنانا واعزازا .

وانتقلوا بعد وقت الى قاعة الطعام وأخذوا يتجاذبون
أثناء ذلك أطراف الحديث فى موضوعات شتى ، فلما جاء ذكر
حادث الهرب قال عارف باشا موجهها الحديث إلى حورية

— يجب أن أصارحك يا حورية أنك أخطأت أكبر الخطأ فى
كتمان الأمر عن شوقى ، وفى رأي أنك لو كاشفته بالحقيقة
من بادية الأمر لما حدث ما حدث —

فقال جميل بك مؤمنا على كلامه فى حرارة

— هذا حق ، وانت اذا أردت أن تتقصى أسباب فساد الحياة
الزوجية فى الأسرة الشرقية لوجدت أن خوف الزوجة وحرصها
على كتمان أمورها عن زوجها يتبوءان مركز الصدارة بين
أسباب هذا الفساد —

فقلت حورية نى أسف وحيرة

— هذا صحيح ، ولكن سر مصرع أييه كان صدمة عنيفة لى
سيما وقد كنت أعلم حق العلم مبلغ حبه له وتعلقه بذكراه ودوام
تفكيره فى مصيره ، فلا عجب وهذه الظروف كما ترون اذا
تنكبت الطريق الذى يمليه العقل والحكمة ، وسلكت مسلكا
خلوا من الاتزان والرشاد -

وهنا قالت فائزة - لاسيلى الى الانكار بأن حورية كانت فى
مأزق من شر المآزق ، وأنا أقرر صراحة اننى لو كنت مكانها
لما فعلت غير ما أقدمت عليه -

وابتسمت وهى تقول هذا الكلام ثم أردفت قائلة

— وما دام الأمر كذلك فلا لزوم لمتابعة الخوض فى هذا
الموضوع ودعونا نفكر فى مسرات الليلة ومباهجها -
فقال الأستاذ شفيق وهو يفرك يديه فى سرور

— اننى لم أنس هذه المسألة ، ويسرنى أن أعلنكم بأن الحفلة التى
ستحييها حورية الليلة ستكون مفاجأة لكم جميعا .

وعندما اقترب موعد الحفلة اشتدت فى الفندق الحركة

وزاد فيه النشاط ، وكان حوض السباحة ملىء بالماء وقد سلطت عليه الاضواء فبدأ فيه كالفضة المذابة ، وحول الحوض كانت الأضواء تسطع على موائد احاطت بالحوض في شكل هندسي جميل ، وكانت هناك جزيرة من الورود والأزهار أعدت في وسط الحوض لأفراد فرقة الموسيقى ، وكانت نافورات الماء تحت الأشجار والأضواء الملونة من الأغصان تؤلف مشهداً فاتناً يسر العين ويأسر النفس ، وكان المكان على سعته غاصاً بجمهور حاشد من مختلف الجنسيات الشرقية ، وكان برنامج الحفلة ينقسم قسمين ، قسم للنبولوجات اللبنانية والمصرية وقسم للغناء ، وكانت ليلي (حورية) هي كوكب الحفلة فما أن ظهرت على المسرح بطلعتها الوضيئة حتى ضج المكان بالهتاف والتهيت الأكف بالتصفيق ، وكانت ترتدى ثوباً بسيطاً ذا كنى اللون ولكنها بدت فيه تحفة أنيقة متألفة تستهوى القلوب وتجذب الأنظار ، فلما خفت الأصوات وساد السكون انطلق صوتها يشدو فى عذوبة ورخامة وحنان ثم أخذ يعلو قليلاً قليلاً ويرتفع شيئاً فشيئاً الى أن بلغ درجة خيل معها للسامعين أنه يملأ المكان كله بأرضه وسمائه ، كانت أغنيها حارة ملتزمة كلها جمرات من آهات الشوق والجوى ، وكان الحاضرون ينصتون اليها مرهفي الحس معلقى الأنفاس

يكادون من فرط الطرب يترنحون ثملا ويتمايلون اعجابا وسرورا ،
وطفقت حورية تشدو بصوتها الملائكى والجمهور يستزيدها
ويستعيدها الى ساعة متأخرة من الليل ، وما أن انتهت الحفلة
حتى كان اسم « ليلي » يدور على كل لسان .

وفي صباح اليوم التالى كتب الأستاذ شفيق رسالة
مستفيضة دوّن فيها تفاصيل القصة كما سمعها من حورية وبعد
أن عرضها عليها أرسلها بالبريد الجوى الى شوقي بعنوانه فى
مصر .

الفصل السادس عشر

ووجدت تلك الرسالة الخطيرة طريقها الى دار
يونس بك في صباح يوم انتعشت فيه الآمال بزوال الخطر عن
صحته وقرب تماثله للشفاء من المرض الذي ألم به ، وكان شوقي
وقت وصول الرسالة يتناول طعام الفطور مع والدته في غرفة
ملاصقة لغرفة المريض ، فلما دخل الخادم وناولها الرسالة أخذ
يستعرضها بين أصابعه ثم قال لأمه :

— أغلب الظن أنها من الأستاذ شفيق الذي حدثك عنه -

فقالت - هذا ما دار بخلدی حينما رأيت طابع البريد على
الغلاف -

فقال - اتی انتظر بفارغ صبر أخبار الأستاذ شفيق وصحته
السعيدة ، ترى ما وراءه ؟ -

فقالت - لعله ينوى العودة قريبا -

فقال - هذا يتوقف على وصول مطرته التي سبق أن حدثك
عنها -

واذ ذاك ارتفع صوت يونس بك من الغرفة المجاورة في طلب

زوجته فنهضت ثريا تلبي رغبته وكان شوقى فى ذلك الوقت قد
فض الرسالة وبدأ فى تلاوة محتوياتها ، وما كاد يقرأ بعض
فقراتها حتى قفز من مكانه وهو يضغط على فمه بكفه كأنه يمنع
صيحة هول ودهشة تكاد أن تنفجر فى صدره ثم أسرع إلى
غرفته فى ارتياح وبادر الى اغلاق الباب القائم بينها وبين الردهة
المؤدية الى غرفة الطعام ، ولما اطمأن الى عدم وجود من يراقبه
انحنى على الرسالة وراح يتلوها وهو ينتفض حتى اذا ما أتى عليها
وقف فى شبه غيبوبة طويلة وغرق فى ذهول عميق لم يتنبه لنفسه
منه الا حينما سمع وقع اقدام أمه وهى تغادر غرفة المريض الى
غرفتها الخاصة ، هنالك وقف فزعا مرتاعا وظل كذلك واجمعا
ذاهلا الى أن عاودته القدرة على التفكير ولم يطل مقامه بعد
ذلك فى غرفته فما هى الا أن انحسرت عنه صدمة المفاجأة حتى
استدار وغادر غرفته وتوجه رأسا الى غرفة المريض ، واذ مر
بالردهة ألنى أمه فى غرفتها منهمكة فى اعداد بعض الأدوات
الطبية مع أحد الخدم فضى فى سكون الى غرفة الرجل ثم دخل
وأغلق الباب خلفه بعد أن أحكم رتاجه ودس مفتاحه فى جيبه ،
وكان وجهه عندما توسط الحجرة مربدا مروعا لفرط ما شاع
فيه من آيات القسوة البالغه والغضب الجاثم والالم اللاذع ،

وكان يونس بك في ذلك الوقت ممددا في فراشه تعلق وجهه علامات المزال والشحوب الشديد ، وتشرد من عينيه الغائرتين نظرات قلقة زائغة خاية البريق فلما وقع بصره على شوقي وهو يتقدم ناحيته التفت اليه وقال بصوت راعش يفيض مودة وحنوا .

- تعال يا شوقي فاني بحاجة الى ... -

وسكت بغتة حين وقع بصره على سيمائه المنقلبة وسحنته التي تنضح بالشر وتنفت الحقد والكرهية ، وبعد لحظة فتح فيه واستطرد قائلا

- ما خطبك يا شوقي ، أراك شديد الانزعاج فهل حدث شيء؟ -
فدنا الآخر منه ورمقه بنظرة هائلة ثم قال في صوت حافل بالحقد - أجل لقد حدث شيء فظيع للغاية ؟ -

فنظر اليه الرجل في توجس وقال وهو يتأمل سحنته في دهشة - يا لله ، انك شديد الانفعال ، ترى ماذا حدث ؟ -

فقال الشاب في صوت رهيب حافل بالوعيد

- لقد عثرت أخيرا على القاتل ... قاتل أبي -

فاجفل الرجل وظل لحظة يحقد في وجه الشاب ثم قال

- القاتل !! ما هذا الذي تقول يا شوقي ؟ منذ الذي زعم هذا

الزعم وأنت تعلم حق العلم أنه مات ميتة ربه -
فقال الآخر في غضب وانفعال ظاهر

- لا تحاول خداعى ، أنك تدرك تمام الإدراك ما تحت كلتى -
فاصفر وجه الرجل حتى حاكى وجوه الموتى ولكنه عاد فتمالك
نفسه وقال وهو يتصنع الجهل

- اننى لا أفهمك يا شوقى... ماذا تريد بقولك هذا ؟ -

فنظر اليه الشاب نظرة صاعقة وقال وهو يعرض على نواجذه -
أريد أن أقول أنك أنت قاتل أبى -

فأجفل الرجل واصفر وجهه اصفرارا شديدا ولكنه جهد حتى
تمالك قواه المزعزعة ثم قال :

- يا الهى ، ماذا تقول يا شوقى ، كيف تجرؤ على اتهامى بتلك
الفرية الشنيعة ، ترى منذ الذى بث فى نفسك البريئه هذا
الاعتقاد الآثم -

فصاح فيه مزجرا وهو يهتز من شدة الانفعال

- صه ، أنك تخدعنى ولكنك لن تستطيع خداعى هذه المرة
بعد أن كشفت هذه الرسالة حقيقة أمرك ، نخذها واقرأها ثم
كذبها اذا استطعت -

قال ذلك ثم مد اليه يده بالخطاب فتناوله الرجل من يده وهو

يرتجف ثم نشره بين يديه وأخذ يتلوه وسط سكون رهيب وما أن أنه حتى تخاذلت قواه وتضعضت ارادته وانخزل تصميمه ثم راح في شبه غيبوبة وهو يقبض على أغطيته بأصابع متشنجة ، وأخيراً أفاق من ذهوله وغمغم يقول بصوت المذنب الذى يواجه بجريمته ولا يجد مفراً من الاعتراف .

— شوقى ، لا مناص من الاعتراف بذنبى . ان كل ما ورد فى هذه الرسالة صحيح . ولكن من الصحيح أيضاً أنى ندمت على فعلتى غاية الندم وتعذبت من جراء التفكير فيها أشد العذاب ، فهل لك أن تصفح عنى ؟ -

فأجابه فى حدة وغضب جنونى

— انك تطلب محالاً ، ان جريمتك البشعة أكبر من أن تغتفر ، فليس أشد اجراماً من رجل مثلك يرتضى ضميره أن يسلب مرموساً ضعيفاً زوجته ، ويطأ بقدميه سعادته ، ويسفك يديه الآثمة دمه فى سبيل مآربه وشهواته ، ان فعلتك الآثمة تستوجب أشد أنواع العقاب فاذا لم يعرف القانون كيف يقتص منك فسأتولى بنفسى عقابك -

فاختلجت أهداب الرجل وقال فى صوت مضطرب

— وهل تقوى على فعل ذلك يا شوقى ؟ -

فأجابه - انى أقوى على ما هو أكبر من ذلك وأعظم بعد أن
عرفت من أنت -

فأرسل الرجل بصرا زائغا وقال

- ماذا ، هل أفهم من ذلك أنك تنوى قتلى ؟ -

فأجابه فى لهجة قاسية وهو يصوب اليه نظرة صارمة
- هذا ما انتوى فعله اذا لم أنجح فى قتلك قتلا أدبيا -

فقال الرجل فى انزعاج وخوف واستعطاف

- كلا ... كلا ، انك لن تفعل ذلك يا شوقى ، انك لن تشهر
بى وتقضى على سمعتى وشرفى ، قل انك لن تفعل ذلك ان لم يكن
من أجل فنى أجل أمك -

فارتجف الشاب ووقف يحملق فى وجهه برهة ثم قال

- ماذا تعنى ؟ هل تقصد أن لها ضلعا فى المؤامرة ؟ -

فالتفت عينا الرجل ثم قال وهو يهز رأسه

- كلا ، أقسم لك ، أقسم لك أنها لا تدرى عن ذلك شيئا -

فقال الشاب - دعك من القسم وصارحنى بالحقيقة ، صارحنى

بكل شىء كيما أكون على بينة من أمرها وأمرك -

فأجابه - أقسم لك ان ما أقوله هو عين الصدق ، لقد أحببتها

منذ رأيتها معك أنت ووالدك خلصة أثناء تنزهكم فى حديقة

الاندلس حبا ملك نفسى واستأثر بعواطفى وأهوائى ، ولكنى اعترف صادقا أنى لم اظفر منها بشيء ولم أفلح فى أغوائها رغم الجهود التى بذلتها توفيق فى هذا السبيل والتى كان أبرزها انتهاز فرصة تلك الحفلة الساهرة التى أقيمتها لمساعدة جمعية الفتيات الضعيفات لاجراجها من حصنها الذى كانت تعتصم به ، ولا أذكر المحاولات التى حاولتها توفيق أبان مرض أليك ولكن الشئ الذى أذكره أنه ما من مرة عاد فيها من داركم الا كان الفشل حليفه ، وانت تعرف الحب اذا اضطربت ناره فى قلب رجل أعزب مشتعل العاطفة مثلى كيف يلتهم كل شئ وكيف يستعصى على كل حكمة وروية وتفكير ، فما أن وسوس لى توفيق بخطة الخلاص من أليك حتى بادرت بتنفيذها دون تحكيم للعقل أو اصغاء لصوت الضمير ، ولن أستطيع يا شوقى أن أصور لك مبلغ العذاب الطويل الثقيل الذى احتملته من جراء هذه الفعلة المنكرة ، ومدى الجهد المهلك العنيف الذى بذلته فى ذود ذكرياتها ، ومدافعة صورها المزعجة التى كانت لا تفتأ تثير الألم والأسى والندم أمام عيني ، اننى لن أستطيع يا شوقى أن أصور لك كل مآلئته من عذاب نفسى ، فصور أنت بذهنك القصصى ما تستطيع أن تصوره من الصور لهذه المحنة لعل ذلك يؤدى

الى عطفك على والرفق بالرجل الذى رعاك ورباك -

فصمت الشاب لحظة ثم قال

- هيهات ، لقد أقسمت على الانتقام لأبى من قاتله ، وليس
غرضى من قسمى أن أنزل تقمى بالرجل الذى كفلنى ورعائى ،
أو زوج أمى الذى أكرمها وأسعدها وآواها ، ولكن بالرجل
الذى فتك بأبى فى سبيل شهوته ، أفهم هذا جيدا ، واعلم أنه لن
يهدأ لى بال أو يستقر لى خاطر حتى آخذ بثأر أبى وأشنى غليل
من قاتله -

فتخاذل الرجل وقال وهو يلث فى توسل وضراعة

- رحمة بى يا شوقى ... انى أسألك بحق رعائى لك أن ترفق بى
وتدعنى أعيش ، ومن يدرى لعل اطالة أجلي شر على نفسى من
كل عقاب تنزله بها -

فأجابه - اننى لا أفهم معنى لهذا الرفق ، انما الذى أفهمه أن رجلا
مثلك لا يحق له أن يطلب المغفرة -

فبسط الرجل ذراعه فى يأس وقال فى ضراعة

- اتوسل اليك أن تصفح عنى ، دعنى أعيش يا شوقى من أجل
أهلك -

فأجابه فى حق - وهل زكت أبى يعيش من أجلها أو من أجلى ،

فكر في الأمر مليا ، ففكر في أنك حرمتني أبي و فرقت بيني وبين زوجي وقد كانا مصدر سعادتي والقيمة الحقيقية لحياتي ، ففكر في هذا كله وفكر في قيمة الحياة التي ستحيانا بيننا بعد اقتضاح أمرك وظهورك على حقيقتك -

وكانت كل كلمة من هذه الكلمات بمثابة طعنة في قلب الرجل فتملأ في فراشه ثم قال في صوت يشبه الأنين

- آه ، انك على حق يا شوقي ، انني لا استحق حقاً أن أعيش ، فانزل بي من النعمة ما تشاء وفقط أتوسل اليك أن تبقى على سمعتي وشرفي -

فقال الشاب - أهذا كل ما تريده ؟ -

فأجابه بصوت متحشرج - أجل -

فقال الشاب - حسنا ، انني أعدك الا أمس سمعتك بسوء اللهم الا اذا اقتضت مصلحة حورية ذلك -

فأجابه - هذا حق لا أعترض عليه ، والآن تستطيع يا شوقي أن تفعل بي ما تشاء -

فارتجف الشاب وأطرق مفكرا وصدره يعلو ويهبط كأن زوبعة هائلة تعصف برأسه وبقي كذلك لحظة الى أن أخرجه الرجل من صمته بقوله

— شوقي ، لم التردد ؟ أظهر ما في قلبك ولا تكتم ثورة نقيمتك ،
فإنك ان فعلت خففت عني ما أحمل من آلام وخلصتني من أثقال
الفضيحة والعار ، انني أعرف أنك أنبل وأعظم من كل شاب
ولكن دعني أحرصك على قتلي فلست والله أريد أن أحياتك
الحياة الشقية بين قوم طيبين مثلكم ، اقتلني وأنت مطمئن النفس
لأنك تريحني من شقائي -

فرفع الشاب رأسه وقال في صوت يشوبه الاضطراب
— انك تعلم ما يمنعني من سفك دمك ، حقا انني لا أتمنى شيئا كما
أتمنى السوء لك ولكني مع ذلك لا أجحد من نفسي قدرة على
الانتقام منك والقضاء عليك بيدي ، ولو فعلت ذلك لما لا مني
عليه أحد ، ولكني لست أرضى لنفسي أن أقتل بيدي الرجل
الذي أكرمني سبعة عشر عاما وكان مني في مقام الأب ، اتى
لا أقدر على ذلك ولكني أقدر على شيء واحد وهو أن أتركك
لضميرك وأرحل عن هذه البلاد الى أن يقضى الله بقضائه بيننا -
فقال الرجل في صوت حافل بالتأثر

— لا حاجة بك الى الرحيل يا شوقي ، انني أعرف السبيل
الوحيد لرد السعادة اليكم جميعا ، فهل لك أن تمهلي قليلا حتى
أحزم أمري -

فتأمله الشاب لحظة ثم سأله

— لست أدري ماذا تعنى ؟ —

فأجابه — ان ما أعنيه هو اننى قد اهديت الى حل يرضيكم جميعا —

فسأله — ماهو ؟ —

فأجابه — تريث بي حتى أمعن النظر فيه —

— الا تحدثني به ؟

— سأحدثك به فى الوقت المناسب أما الآن فدعنى أسألك شيئاً —

— سل ما تريد فانى مصغ اليك —

فسكت الرجل لحظة ثم قال فى هدوء عجيب

— اذا وجدت فى هذا الحل ما يرضيك فهل تصفح عني ؟ —

— أجل ، وسأحاول أن أحمل الجميع على الاغتفار لك —

— يكفينى هذا والآن وداعا يا شوقى —

وكانت كلمة الوداع على أذن الشاب عميقة الأثر لغرابتها

فوقف لحظة يتأمل سحنة الرجل ثم أولاه ظهره وانصرف الى

غرفته وبعد أن قضى بها دقائق خرج مرتدياً ملابسه وغادر الدار

ويمم شطر المطار حيث حجز له مكانا فى إحدى الطائرات

المسافرة الى لبنان .

وقبل الظهر عاد الى الدار مرة ثانية وماكاد يقترب من

الباب حتى طالعته ضجة وصياح وعويل فتوقف لحظة ثم مضى

إلى الداخل وحالما وقع بصر أمه عليه أسرعت إليه وهي تصيح
في دعر مستجدة ، نخف إليها وقال - ماذا حدث ؟ -

فهمت - يونس ... يونس لقد انتحر -

فسألها - انتحر ! وكيف حدث ذلك ؟ -

فأجابته والدموع تنهمر من عينيها في غزارة

- لقد غافلنا وابتلع حبوب العلاج كلها دفعة واحدة -

فلاحت الدهشة على وجهه وقال مستفسرا

- وهل ترك وراءه ما ينم عن سبب انتحاره ؟ -

فأجابته - نعم ، لقد ترك قصاصة عزا فيها انتحاره الى يأسه من
الشفاء -

وعندما دلفا الى حجرة الميت دنا شوقي من الفراش

وأزاح الغطاء عن وجهه ثم التي نظرة طويلة على سحنه البشعة

المتقلصة وظل يتأمل معالمة الى أن اقتربت أمه وقالت في اشفاق

وجزع .

- ما أفظعها من ميتة ياشوقي ، يخيل الى أنه تعذب كثيرا قبل موته -

فغمغم يقول وهو يسحب الغطاء على وجهه

- أجل ، لقد تعذب بما فيه الكفاية - وغاب عن أمه مغزى

عبارته لحفوتها وبعد لحظة خرجت معه وهي تترنح وتدفن وجهها بين راحتيها .

وقصدا على اثر ذلك الى غرفة الانتظار وأخذا يتباحثان في أمر الجنازة فقررا استدعاء رسمية هانم وبعض اقاربه ولما فرغا من عمل الترتيبات اللازمة استقبلا بعض رجال الشرطة والنيابة الذين وفدوا للتحقيق والتحري وقضى هؤلاء دقائق ثم انصرفوا بعد أن أذنوا لأهل الميت بدفنه .

وكانت ساعة تشييع الجنازة ساعة واجمة ثقيلة كئيبة على قلب شوقي وكذلك كانت الساعات التي قضاها في المأتم يتقبل تعازي المعزين ومواساة المواسين ، وكان اجتماعه برسمية هانم وأمه بعد انتهاء المأتم كله حيرة وكله تردد بين الحاجة الى الافضاء اليها بالسر الرهيب فورا لاعلان براءة حورية وتمهيد الطريق لعودتها ، وبين الرغبة في الوفاء للرجل وصيانة سره بعد وفاته ، ووجد الشاب في هذا النضال المرير عنثا شديدا تفرقت له نفسه وشردت من أجله خواطره ، ولكنه رأى نفسه آخر الأمر أمام موقف لا يستطيع أن يخلص منه الا بالتحلل من عهده للرجل معذرا في ذلك عن نفسه بضرورة العمل على اظهار براءة حورية ومحو ما لحق بها من ذل وعار ولكن على

نحو لايمس سمعة الرجل بين معارفه وأصدقائه ممن لا يعينهم شأن زوجته . ووجد شوقي في هذا الحل راحة ملأت قلبه نشوة وأفعمت نفسه سرورا ، ولكنه مع ذلك وجد من نفسه عجزا عن مصارحة المرأتين بجملة الأمر في هذه الليلة فانصرف الى مخدعه دون أن يبوح لهما بشيء مؤثرا مفاتيحتها بذلك في مناسبة أخرى في الصباح .

وما كاد شوقي يخلو الى خواطره وأفكاره في غرفته حتى تولى قلبه خدر شهى طويل ، وضأت جنبات نفسه بسرور لا حد له ، واذا الاساير المنقبضة تنبسط وتستقيم وكأنما مستها يد ساحر ، واذا هذا الوجه الكالح العابس يستعيد نضرة وصفاءه ، واذا ظلام نفسه ينقلب نورا ، واذا يأسه يستحيل أملا ، واذا كل شيء أمامه يتحول جمالا رفيعا وأضواء مشرقة متألقة ، واذا هو يستحيل من جديد ذلك الشاب الرضى الخلق ، السعيد النفس الذى عرفناه يوم كان زوجا هائتا يعيش مع زوجته الحبيبة فى جنات الحب الموردة ، ويخلق بروحه معها الى ذرى السماء .

وعندما نهض من نومه فى الصباح كان أول شيء فعله أن أمسك بقلبه وكتب البرقية التالية الى حورية فى لبنان :-

« اننى لا أكاد أصدق . اننى فى فرح شديد لا يمكننى وصفه أو التعبير عنه ، يمكننى أن أقول لك اننى أكاد من فرط السرور أذهل عن صوابى ، ان قلبى لا يطيق صبرا فانتظرى حضورى بين ساعة وأخرى »

شوقى

وبعد أن فرغ من كتابتها دعا أحد الخدم وناولها اياها وطلب منه ارسالها من أقرب مكتب للتلغراف وحالما انصرف الخادم بادر الى التليفون واتصل بالمطار وبعد أن قضى وقتا فى عمل الترتيبات اللازمة لسفره ارتدى ملابسه وهبط الى غرفة المائدة لتناول فطوره ، وكانت والدته ورسمية هانم تنتظرانه هناك فلما رآهما خف اليهما وحياهما ثم أخذ مكانه بينهما حول المائدة وراح يتناول طعامه وهو يصغى الى أحاديثهما عن تعليقات الصحف عن الحادث ووقعه الأليم فى نفوس أصدقاء الفقيد ومرءوسيه ، وكان شوقى يعانى أثناء ذلك أزمة حادة من جراء التفكير فيما هو مقبل عليه ، ولكن تفكيره فى هذا الأمر لم يطل كثيرا فسا أن فرغوا من طعامهم حتى بادر وأظهر لهما رغبته فى الاختلاء بهما للتحدث معها فى أمر خطير يشغل باله ، فنهضتا على الفور وسارتا معه الى غرفة الاستقبال ، فلما استقر بهما

المكان استهل كلامه بقوله

- اننى أريد أن أكشف لكما عن سر خطير يتعلق بيونس بك
وبكل فرد منا جميعا -

فبدت الحيرة والارتباك على وجهيهما وقالت أمه وهى تنظر اليه
فى قلق وريب واضطراب

- سر !! وهل فى الأمر شىء لم نعرفه بعد ؟ -

فقال - نعم يا أماه ، انها ناحية مغلقة مجهولة بما كان يجرى وراء
الستار وهى مسألة ترجع فى تاريخها الى ما قبل مصرع أبى -

فندت عن أمه صرخة هى مزيج من الرعب والدهشة وقالت
- ماذا تقول ؟ هل لأبيك علاقة بالموضوع ؟ -

فهر رأسه علامة الموافقة وقال بصوت عميق
- نعم .. وعلاقته بالمأساة خطيرة للغاية -

فانتفضت أمه وقالت مأخوذة وهى تدق على صدرها
- مأساة ! أية مأساة تعنى ؟ -

فأجابها - هذا مأساويه الآن -

وهنا قالت رسمية هانم وهى تصوب اليه نظرة فاحصة
- خبرنى أولا هل أنت واثق من صحة ماسترويه ؟ -

فأجابها - كل الثقة يا رسمية هانم -

وبعد لحظة سكون رهيبة أخذ شوقي في سرد القصة من بدء تدير المؤامرة التي انتهت بمصرع أبيه الى نهاية الموقف الذى أفضى الى انتحار يونس بك ، وكانت المرأتان تصغيان اليه اثناء سرده لتفاصيل القصة وهما تنتفضان من شدة الفزع والدهشة والانزعاج ولما بات قريبا من نهاية القصة تطلع فجأة الى أمه وصاح — أماه ... أماه ، ماذا بك ؟ —

وفى اللحظة التالية قفز مهرولا وتلقاها بين ذراعيه قبل أن ترتطم بالأرض فاقدة الوعي ، ونهضت رسمية هانم على الاثر وهى ترتعد ثم عاونتة فى حملها الى مخدعها وبعد أن وضعها فى فراشها وقاما بعمل الاسعافات الأولية لها التفتت رسمية هانم الى شوقي وقالت — انها حالة مؤلمة جدا يا شوقي . لقد كانت الصدمة أشد من أن تتحملها اعصابها —

فقال وهو يتأمل وجه أمه فى أسى وأسف .

— هذا عين ما توقعت حدوثه لها بعد اطلاعها على الحقيقة —

فنظرت اليه فى ريب وقالت وهى تنقل النظر بينها

— ماذا ؟ أظن أن لها ضلعا فى المسألة ؟ —

فقال فى حرارة — كلا ... اننى على يقين من طهارتها ، وماعنيت

سوى أنها كانت تثق يونس بك ثقة عمياء لا حد لها —

فتبدد توجسها وقالت فى ارتياح - حسنا، والآن اصغ الى ياشوقى،
لئن كان يونس قد فجّحك وأذاك أكثر من مرة فقد نال جزاءه
مضاعفاً، ومن ثم لا ينبغي بعد اليوم أن تفكر فى جريمته أو
تستعيد ذكرياتها الأليمة القائمة، امحها من ذاكرتك وطأها
بقدميك كما تطأ الجمرّة المتقدّة ولا تدع لها فرصة لتكدير صفوك
وتنغيص الحياة السعيدة التى تنتظرك مع زوجتك العزيزة، هذا
ما أردت أن أقوله لك الآن واذا أردت المزيد من النصيحة
فانى أشير عليك بضرورة المبادرة بالرحيل الى لبنان والعودة
بحورية فى أقرب فرصة ممكنة فان حضورها كفى بأن يعزينا
عن آلامنا ويفرج عنا ما نحن فيه -

فنظر اليها نظرة امتنان وقال - لست أدري كيف اشكر
يارسمية هانم، اننى لن أنسى لك هذه اليد التى تسدينها الى دائماً
فى الشدائد -

فقالت - اننى لم افعل شيئاً يستوجب الشكر فوجه الشكر لله الذى
انقذنا من الشر وخلصنا جميعاً من العار، والآن خبرنى ماذا
تتوى عمله ؟ -

فأجابها - سأذهب فوراً لاستدعاء الطبيب وسوف أرحل بعد
ذلك الى لبنان بالطائرة للعودة بحورية -

فأشرقت أساريرها وقالت - دع لى مهمة العناية بوالدتك أما أنت فلا ينبغي أن تضع دقيقة واحدة اذ لا بد أنها تنتظرك على أحر من الجمر -

فأجابها - بوسعى أن انتظر قليلا حتى يحين موعد قيام الطائرة -
- حسنا ، اذهب اذن واستدع الطبيب -

• • •

وجاء الطبيب بعد وقت قصير وبعد أن فحص المريضة قرر أنها بحاجة الى الراحة وأمر بعدم ازعاجها الى أن تثوب الى رشدها ، ثم دار بينه وبين رسمية هانم وشوقى حديث قصير استخلصا منه أن حالتها مطمئنة وانها ستعود الى حالتها الطبيعية بعد فترة قصيرة ..

وعلى أثر انصراف الطبيب انفردت رسمية هانم بشوقى فى غرفة مجاورة لغرفة المريضة وقالت له

- الآن تستطيع أن تسارع الى حورية وأنت مطمئن النفس ، ولكن قبل أن تذهب أحب أن أسألك شيئا -

فقال - اطلبى ما شئت يا رسمية هانم فلست أطمح الى شيء كما أطمح الى تحقيق رغبة لك -

فقلت - شكرا لك ، ولكنى أخشى أن يكون ما سأطلبه
عسير المنال -

فأجابها - ثقي بأننى لن أعترض على رغبة لك ، فماذا تطلبين ؟ -
فقلت - ليس لى سوى مطلب واحد ياشوقى فهل تعدنى به ؟ -
- أجل ، أعدك ، فما هو -

- انك لاشك تعلم أن حورية عندى خير من كل انسان، وهى أحب
الى نفسى وأقرب الى قلبي من فاتن نفسها ، ولذلك فانى أناشدك
أن تجعل مقامها هى وزوجة ابيها وبناتها الثلاث فى الضيعة والا
تعمل على التفرقة بينها وبينى بحال من الأحوال -
فقال وعلى فمه ابتسامة تتم عن الرضا والسرور .

- ومن قال لك اننى انتوى خلاف ذلك يا رسمية هانم ؟ -

فأشرق وجهها وقالت فى فرح وجذل واغتيباط .

- اذن فهذه هى نيتك ، لقد كنت والله أخشى أن يقف الماضى
بذكرياته الأليمة حائلا بينكما وبين العودة الى الضيعة -

فأجابها - ان الضيعة هى أرض آمالى وفردوس حبي وأحلامى ،
ومن أجل ذلك فلن أفكر يوما فى الارتحال عنها اللهم الا اذا
سبق فى قضاء الله أن ننتزع منها مرة أخرى بضربة من ضربات
القدر الباطشة ومفاجأة من مفاجئاته العمياء الجائرة -

فنظرت اليه وأخذت تتأمل مسحة الألم والغضب التي تسالت
الى محياه ثم قالت :

— أراك شديد النعمة على القدر -

فقال - كيف لا وقد عبث بي وبها كل هذا العبث ، ان هذا
القدر شيء جنوني مخيف للغاية -

فقالت - وما جدوى الغيظ والحقد والتمرد يا شوقي ، أليس من
المحتمل أن يكون كل ما أصابك لحكمة تجهلها ؟ -

فانقبضت أسارير وجهه وقال في صوت حافل بالضيق والضجر
— أية حكمة هذه ، اننا لم نرتكب شرا نعاقب عليه بالشر ،
انه لقد أخرج ذلك الذي يلقي نوائبه على الناس بغير حساب ،
ويصب محنه على من لا يستأهلها -

فقالت وهي ترقب انفعاله في عطف واشفاق

— لو كنت مكانك لما عذبت نفسي بالتفكير على هذا النحو -

فأطرق لحظة مفكرا ثم رفع رأسه وقال :

— الواقع يارسمية هانم اننى كلما فكرت فى الكوارث التى صيها
القدر على رأسى وعلى رأس حورية المسكينة ازدادت حيرتى
وانحرف تفكيرى الى الضلال ، وانى كثيرا ما أتساءل لماذا قدر
لنا ونحن أطيب الناس قلبا وأطهرهم نفسا أن نبتلى فى دنيانا بكل

هذه الخطوب ، ونلتقى فى حياتنا كل هذا الشر والعنت ، أليست هذه حالة محيرة مؤلمة ؟ -

فأجابته - أجل ولكنها لا تكون كذلك اذا صغت كلامك صيغة أخرى وفكرت على نحو آخر -

فقال - لعلك تقصدين وجوب الأذعان لمشيئة القدر والاستسلام لعبث القضاء -

فقلت - كلا ، وإنما أقصد أن الشر شيء لا غنى للحياة عنه ، صحيح أنه شيء بشع مخيف ولكن لا تنسى أنه هو وحده الذى يستطيع أن يوضح وجه الخير ويظهر جماله للناس ، ولا شك أنك تدرك ذلك الآن أكثر من أى وقت آخر لأنك لاريب تحس فى هذه اللحظة التى تتأهب فيها للقاء حورية بعد طول التفريق بسعادة لم تنعم بها من قبل ولم يدر بخلدك انها تتاح لانسان فى الحياة ، وما ذلك الا لأنك عرفت الشقاء وذقت طعم الحرمان والألم أليس كذلك ؟ -

فأجابها - اننى متفق معك فى رأى بأنه ليس هناك ما يسمو بقلب المرء مثل الألم ، ولكن لاشك أن التجربة التى مرت بنا كانت قاسية للغاية -

فقلت - هذا صحيح ولكنها كفيلة بأن تجعل منكما أسعد زوجين
في الوجود -

وظل الاثنان يخوضان في هذا الحديث الى أن اقترب
موعد قيام الطائرة ، وحينئذ نهض الشاب والفرح يشيع في
جوانب نفسه ثم شكرها وحياتها وانصرف .

الخاتمة

أحدثت برقية شوقي في نفس حورية حبورا لاحد له ،
فأنشأت تدندن طول يومها بأغنية جميلة تشيد بعودة الحبيب ،
وظلت تروح وتغدو فرحة مستبشرة تحادث هذا وتبسم لتلك ،
وسرت عدوى حبورها الى الأستاذ شفيق ورفاقه فسبحوا معها
في عالم كله فرح وابتهاج ، وانغمروا بمشاعرهم في جو مرح جميل .

وكان اليوم التالي يوما بهيجا اعتدل جوه وسرى
سحره وأمتزجت أنفاسه العطرة بآمال حورية امتزاجا انتشت
له جسما وروحا ، وخطر لها قبيل الأصيل أن تصعد الى غرفتها
لتصالح من زينتها وتحيي نفسها للقاء زوجها ، فلما انفردت بنفسها
في غرفتها ألقت عنها ثوبها الذي كانت ترتديه في الصباح وارتدت
ثوبا آخر أبيض اللون بدت فيه كالزنبقة المتألقة ، ثم اتسكأت على
حافة فراشها وأسبلت أهدابها مستغرقة فيما يغمرها من فيض
السعادة ويستنفد قواها من نشوة الفرح والغبطة، وانها لكذلك
اذا بباب الغرفة يفتح فجأة ودخلت فائزة وهي تثب من الفرح
وما أن رأتها حتى هتفت قائلة :

— ويحك يا حورية من فتاة ، أهكذا تفعلين ساعة وصوله ؟ -
فحملت في وجهها وقالت - الا تكفين عن هذا المزاح يا فائزة ؟ -
فأسرعت اليها وقالت وهي تضمها في حرارة

— اقسم لك اننى جادة هذه المرة ، اننى أول من رأيته حين
هبط من السيارة فجئت توالا أخبرك ، لشد ما تغير هذه الأيام ... -
قالت ذلك ثم جذبتها من يدها فاندفعت معها مهرولة الى الخارج
وصدرها يعلو ويهبط من شدة التأثر ، فلما بلغتا رأس الدرج
نظرت فائزة الى أسفل وأشارت قائلة - هوذا مع أبى والأستاذ
شفيق ... انتظرى قليلا سأذهب اليه أولا -

قالت ذلك ثم تركت صديقتها ومضت هابطة الى القاعة .
وكان الشاب فى ذلك الوقت واقفا فى الردهة يحيط به الأستاذ
شفيق وأفراد الأسرتين ، وكانوا جميعا يتحدثون معه بأصوات
مرتفعة وحالما اقتربت منه فائزة وأشارت اليه رفع وجهه ودار
بعينه بسرعة الى أن استقرتا على وجه حورية وهي تطل عليه
من فوق الدرج وحينئذ صاح هاتفا باسمها فى غبطة غاشية ثم
ترك من معه ووثب صاعدا اليها فى قفزات واسعة ، وكانت
حورية ترقبه من هذا المدى وهي نهب شعور غامر فلما أصبح
على قيد خطوات منها تقدمت اليه وهي تتعثر فى مشيتها فأسرع
اليها مادا ذراعيه وهو يقول فى شوق ولهفة

- حورية يا للمعجزة ... -

فاندفعت نحوه والدموع تنهمر من مقلتيها وقالت في صوت
مختنق .

- شوقى ... مرحبا بك يا زوجى العزيز -

فقد اليها ذراعيه ثم ضمها الى صدره فى شوق وشغف ، وساد بينها
صمت أبلغ من كل كلام ، وعندما أطلقها من بين ذراعيه أمسك
بكتفها وقال وهو يشخص الى أعماق حداثتها المغرورتين
بالدموع - حورية ، دعيني أشبع البصر بمحياك -

قال ذلك ثم عاود ضمها وهو يقول - آه يا زوجى الحبيبة ، كيف
اثبت لك فرجى بعودتك -

فأجابته بصوت مختنق بدموع الفرح

- وكيف تثبته أكثر مما أثبته يا حبيبي -

فقال وهو يضغط على يدها - ما أعذب هذا اللفظ تناديني به
يا حورية ، أما زلت حقا تحبيننى رغم ما حدث -
فأجابته - بكل قطرة من دماي -

وحينئذ ارتفع من ورائها صوت يقول :

- يا له من مشهد رائع ... اننى اعترف انه أروع مشهد غرامى
رأيت فى حياتى -

فالتفتا وعندئذ وقع بصرهما على الأستاذ شفيق وهو يتقدم ناحيتها وفي يده ورقة متوسطة الحجم ، فابتسما له وقال شوقي مستفسرا وهو ينظر الى الورقة — ما هذا؟ —

فأجابه - عقد اتفاق -

فقال الآخر - عقد ! ماذا تعنى ؟ -

فابتسم شفيق وقال - اعنى أنكما ستقومان باعادة تمثيل هذه القصة فى فيلى الجديد ، فهل تبخلان على بذلك ؟ -

فتردد الشاب قليلا ثم قال - اصغ الى يا أستاذ شفيق ، انك قدمت لنا يدا لا ننساها اذ كنت سيبا فى محو شقائنا وردنا من جديد الى حياتنا الاولى وهى خدمة أجل من أن يعبر عنها بشكر ، ولذلك فانى أوافق ولكن بشرط اشترطه عليك -

فقال الآخر - اننى أقبله مقدما عن طيب خاطر ، فما هو ؟

فقال الشاب - أن تعدل القصة بحيث لا تفصح عن أشخاصها الحقيقيين احتراماً للرغبة يونس بك التى ابداهها قبل انتحاره كما ذكرت لك عند وصولى -

وهنا صاحت حورية تقول فى دهشة - انتحاره !!

فالتفت إليها وقال - أجل ، لقد انتحر بعد أن واجهته بأدلة

الجريمة ، وسوف أسرد لك ماتم بيني وبينه بعد قليل -
واستطرد يقول موجهًا الحديث الى شفيق - هذا هو الشرط
الذى اشترطه عليك ، فما رأيك ؟ -

فأجابه - مادامت هذه رغبتك فاني أقبله بكل سرور -

وعندما هبطوا الى القاعة أقبل النزلاء جماعة بعد
جماعة يحيونها ويهنئونهم وكان في صدر الجميع عارف باشا
وجميل بك وفائزة فلما فرغ الزوجان من رد التحية لمهنيهما انتقلا
مع أصدقائهما الى الشرفة وأخذتا يتجاذبان معهما أطراف الحديث
الى أن حان موعد وليمة العشاء التي أعدها عارف باشا تكريما
لهذه المناسبة .



وقضى شوقي مع حورية أياما في الفندق شربا فيها
كأس السعادة صفوا ، واعتصرا معا خير ما في الحياة من نعيم
ومتاع ولذة ، ونعما بامتزاج روحى رفيع وجدا فيه ما فرج عن
المكبوت من أحاسيسها الفياضة ، والمحتجز من أشواقها الحارة
الغامرة .

وبعد أسبوع غادرا الفندق الى بعض مصايف لبنان

فى رحلة جميلة أشبه باجازة شهر العسل حيث اختلسا لهما فترة
سعيدة بعيدين عن أعين الناس ، وبعد أن أشبعوا قلوبها عادا مرة
ثانية الى « عاليه » ثم اصطحبا الأستاذ شفيق واستقلا معه طائرة
عادت بهم إلى مصر .

تمت